محمد أحمد فؤاد

فندق هيجاسياس

HEGESIAS
HOTEL

رواية

فُندُق هيجياس

HEGESIAS
HOTEL

اسم الكتاب: فندق هيجسياس
تأليف: محمد أحمد فؤاد
الطبعة الأولى: 2019
رقم الإيداع: 2019/1567
الترقيم الدولي: 978-977-6606-28-9
المدير العام: أحمد مؤمـن
تصميم الغلاف: أحمد فرج
تنسيق داخلي: عادل محمود نـدا

جميع الحقوق محفوظة للناشر

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة، لمدبولي للنشر والتوزيع، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الناشر والمؤلف.

يُطلب من
الناشر
مدبولي للنشر والتوزيع

18 **ب شارع أنور المفتي - مدينة نصر - القاهرة**
جمهورية مصر العربية
E-mail: Madbouly_publishing20@yahoo.com
فيس بوك: مدبولي للنشر والتوزيع
موبايل: 01281962660

محمد أحمد فؤاد

فندق هيجسياس

HEGESIAS
HOTEL

الناشر

مدبولي
للنشر والتوزيع

(هذه الصَّفحاتُ تضمُّ ما استطعتُ استنباطَه مِنْ دفترِ يوميَّاتِ أديبٍ سكندريٍّ شابٍّ مغمورٍ، يُدعَى (جابر عبد القادر)، وَمِنْ أوراقِهِ الأخرى ومؤلَّفاتِهِ التي سلَّمني إيَّاها صديقي الـمُحترَم (مِنْ قِبَلِي على الأقل!) طارق غلَّاب، الذي أكنُّ له مَوَدَّةً وتقدِيرًا، بعد أنْ فاض عليَّ في إحدى الأُمسِيات بقلقه الذي لا يفتُر على صديقِهِ جابر، الذي انقطعتْ به كلُّ وسائلِ الاتِّصالِ منذُ أكثرَ من أربعةِ أعوامٍ، ولم يعُدْ عند أيِّ إنسانٍ خَبَرٌ عن مكانِ وجودِه. وأنا أنشر هذه الأوراقَ بعد توصيةٍ من طارق (الذي لم يُشفِق من نشرِها، برغمِ ما فيها من أحاديثَ تمسُّ حياتَه الشَّخصيَّة) تعاطفًا مع آلامِ جابر (التي نقشتْ في نفسي – بعد أن أتممتُ قراءةَ يوميَّاته – أسًى جليلًا)، وإذاعةً لصَدَى صَرْخَةٍ تُريدُ أن تُطيحَ برُؤوسِ الظالمين. وأرجو أنْ يسامحَني – إنْ كانَ حيًّا – على تصرُّفي في أوراقِهِ، برغم علمِي التامِّ أنَّه لا يتسامَحُ أبدًا!).

(توطئةٌ مبتذلةٌ لا بُدَّ منها علشان نجيب رِجل الزبون!)

كلُّ يومٍ له حكايتُه؛ فكلُّ دقيقةٍ تمرُّ يمكنُ حكيُ ما حدثَ فيها في سنواتٍ، بكلِّ ما فيها من إيماءةٍ، ومن كلمةٍ، ومن مقطعٍ، ومن صوتٍ. ولن نتحدَّثَ عن الأفكار؛ فمن المجهودِ الشاقِّ أنْ نفكِّرَ فيما يفكِّرُ فيه الآخرون.

(رواية ثورة الأرض – خوزيه ساراماجو)

هنيئًا لكَ أيُّها القارئ. لقد اشتريتَ منذ دقائقَ بـ (...)* جنيهًا، جزءًا من رُوح إنسانٍ. هنيئًا لك.

(تصدير رواية دموع الحجر)

* ضع بين القوسين الثمنَ الذي اشتريتَ به هذه الرواية؛ فلا سبيل لأنْ أعرفه إلا بعد نشرها!

لم يكن غريبًا على الإطلاق أنْ يتصدَّر القائمةَ اسما (حاتم طبوزاده) و(أشرف البرديسي)، ولا أنْ يصادفَ عينيَّ قبلَ فترةٍ غيرِ قصيرةٍ نعيُ الأول، في إحدى الصُّحُفِ القوميَّة!

(خاطرةٌ سنحتْ لي بعد أنْ أتممتُ قراءةَ يوميَّات جابر)

للأسف لم أُترَك بحالي، ولا أفسحت أمطارُ المصائب المتناثرة أمامي مجالًا للتفكير في وسيلةٍ ملائمةٍ أهدِّئ بها ذهني الثائر كأمعاء البراكين، أو لتسكين غيظي. رنَّ الموبايل، وأنا على الرصيفِ الـمُطلِّ عليه مدخلُ مَـجْمَع الكليات النظرية. نظرتُ إلى شاشته المشروخة بالطول، فوجدت اسمَ (حسام الجعَّار)، زميلي في العمل على التاكسي ذي الوردية الصباحية. كنسلت، فعاود الاتصال، فلم يعد أمامي مفرٌّ من الاستجابة.

– أيوه يا حسام.

قال بحروفٍ مُهرولة:

– معلشّ يا جابر روح النهارده بدل مني فْ ورديّتي علشان مراتي بتولد. أنا استأذنت من الشيخ ياسر ووافق.

ففرَّغت فيه غضبي صارخًا بصوتٍ تعجبتْ منه مجموعةٌ من الفتيات ملبنيَّات القوام، وأنا أعتصر الموبايل:

– يعني هيَّ ناقصاك الساعة دي. لو تشوفني وانا طالع دين أهلي كنت انكسفت تتصل.

– يا جابر مالك؟ استهدَ بالله بسّ. باقول لك... مراتي... بتولد. علشان خاطري. أ...

أغلقت الهاتف – قبل أن يكمل – بضربةٍ عنيفةٍ فوق رأسه، انزلق من أثرها الجزءُ المتحرِّك منه، وانكمش الموبايل رعبًا. دسستُه في جيبي بعد نفخةٍ حارَّةٍ أسكنتُها غَضَبي ولَوْعتي وأَلَمي وحَسْرتي وسُخطي وضَيقي وثَورتي.

كابوس أضيف إلى كابوس. هذا اليوم – بلا شك – هو يوم الكوابيس التي لا دواء لها، ولا صَحْو منها. يستحيل أن يمضي على خير. إن المصائب لا تأتي فرادى. حششتُ الخطى نحو...

(صفحة من دفتر يوميات جابر عبد القادر، تلصَّصَتْ عليها أخته الصُّغرى مريم، عقب شجاره مع أمه عشية الخميس 26 ديسمبر 2013. ولم تتلصَّصْ على غيرها، لسببٍ سوف تعلمُه في وقتِه).

***

"إذا كانت ثروتي من سعادةٍ، أفلا أتصدَّق بالابتسامات؟! إذا كانت ثروتي من سعادةٍ، أفلا أُعَدُّ مُعدمًا إذا أصابني الاكتئاب؟!".

(نافذة بلا كوخ – ص 103)

1

– البقاء لله.

قالها الأستاذ (محمود صبري)، صاحب دار الحَلبة* – التي صدر لي عنها روايتان، إحداهما العامَ الماضي، والأخرى في رأسِ هذا العام – لـمَّا التقت عيناه بوجهي، إثر التفاتي لمواجهته، عَقِب إغلاقي الباب.

قالها بفتورٍ يفتقرُ إلى المشاعر الدافئة التي دائمًا ما تغمر هذه العبارة القصيرة. فتور انتشر من صوته على ملامحه الـمُلطَّخة بزرقةٍ باردةٍ، ينشرها في الغرفة الصغيرة ضوءُ النيون القوي المنعكس عن طلاء الجدران الأزرق. لم أحفل، وتناسيتُ غيابَه

* تعجَّبْتُ كثيرًا من اسم هذه الدَّار، ولم أَقِفْ له عَلَى مَعْنًى، حتَّى فسَّرَه (جابر) في إِحدَى الفقرات التي سَوْفَ يَتَأَخَّرُ وُرودُها في هَذَا الكِتَاب، فازددتُ عجبًا! وتعاظمَتْ دَهْشتي حين بحثْتُ طَوِيلًا عن دارِ نشرٍ بهذا الاسم، فلم أجد!

عن العزاء الذي كان قبل أسبوع، برغم عَلاقتِه القويَّة التي جمعته بالفقيد في حياته، والتي تكاد تشبه عَلاقتي بصديقي (الوحيد) طارق، وأيَّ عَلاقةٍ عمومًا يكون صمغُها (الكيف)!

أطرقتُ حزينًا، ورَدَدتُ عليه بمثل ما قال، محاولًا إبعاد ذكرى اللقاء الأخير الذي جمعني بعمِّي، قبل وفاته بيوم، عن ذهني، لكيلا يعاودني الانقباض والأسى اللذان اتَّصلا منذ الخبر المحزن، وجعلا رغبتي المدمِّرة في إنهاء حياتي تُعاود مراودتي، غير أنني أخفقتُ في مراوغة الذكرى، فرنَّ في ذهني قولُه الأخيرُ لي، بعد أن لاحظتُ اضطرابَ آراءِ الأطباءِ بشأن تشخيص حالته (تخيَّل!).

(هُوَّ ربِّنا كدا. بيحبّ يعاكس البشر، علشان يعرفوا إنّ فوق كلِّ ذي علمٍ عليم).

لولاه حقًّا لما استطعتُ مُطلقًا - على صِغَر سني - أن أنشـ...

- خير ان شاء الله يا جابر؟

أخرجني سؤاله من موجة الذكريات التي أهاجتها مواساتُه إياي (برغم فتورها!)، فقلتُ ملوِّحًا بيدي اليسرى الممسكة بحقيبتي السوداء، متكلِّفًا الابتسام:

– معايَ رواية جديدة.

وفتحت سوستة الحقيبة، وأنا أتقدَّم نحو مكتبه، وأخرجتُ من فمها الفاغر مسودة الرواية (التي طبعتُها قبل دقائق بأجري الذي تقاضيتُه أمسِ عن ورديتي المسائية)، ووضعتُها على المكتب. جلست على المقعد الأيمن، وأخذت أتأمَّل وجهه البارد، مترقِّبًا ردَّ فعله.

مدَّ أنامله ببطء إلى ورقة العنوان، المتصلة بها بقية الأوراق (المائة والسبع والخمسين)، بأسطوانة تجليد سوداء، تضم أطراف الحواشي اليمنى المثقوبة من الأوراق (إيه ده؟ معقول الراجل حطّ لي غلاف بلاستيك كانت مضروبة عليه ناموسة؟! غريبة!). تحسَّسَ كلمتَي العنوان بطرف سبَّابته، ونطقهما بروِيَّةٍ.

(دموع الحجر)

ثم كرَّرَهما بنبرةٍ وخمةٍ، بعثتْ في نفسي القلق، فسألتُه مرتبكًا:

- هُوَّاااا. (صَمتٌ قصير). هوَّ فيه مشكلة ولَّا حاجة؟

رفع عينيه عن المسودة، وقال بنبرةٍ لم ترُقْني، وهو يمسحُ بيسراه على لحيتِه (الدوجلاس) التي بدأ الشَّيْبُ يزحفُ عليها:

- ما شاء الله! عيني عليك باردة. دي تاني رواية السنة دي! واضح انّ شغلانة التاكسي مُلهِمة!

هززتُ رأسي ببطءٍ غيرَ مُرتاحٍ لكلامه (هُوَّ بضان كدا ليه النهارده؟! ولَّا يكونش خد باله من الناموسة؟!)، واستطرد هو إلى سؤالٍ عجيبٍ:

- ألَّا هوَّ انتَ بتكتب ليه؟

حدجته مستغربًا. وسَرَتْ فيَّ ارتجافةٌ، برغم سماكة ما أرتديه اتقاءً لليل ديسمبر البارد! ارتجافةٌ تُنذر بالسوء. حاولتُ النفاذَ إلى الغرض من سؤاله، ثمَّ أسقطتُ عنه قصدَ الإساءة على مضض، وأجبته صافيَ النيَّة - وأنا أتململ في المقعد - بنفس

الكلمات الممضوغة المستهلكة التي أكل عليها الدهرُ وتبرَّز:

- الكتابة رسالة. باكتب عشان احقق ذاتي. الجسد فاني والكلمة باقية أبد الآباد. الانسجام مع الذات. الاشتباك مع الواقع... إلخ.

مط شفتيه باستياء، واستمرَّ في مداعبة لحيتِه الناقصة (فعلًا بضان النهارده بشكل غريب! لو فضل كدا بجدّ ممكن اتعصَّب!).

قال أخيرًا بعد هنيهةِ صمتٍ في برود:

- بصّ يا جابر. خلينا نتكلم مع بعض بصراحة. أنا...

قاطعَه رنينُ موبايله، فمدَّ إليه ذراعه الغليظة، والتقطه من على مكتبه، ومرَّر إبهامَه فوق شاشته ليجيب:

- ألو. أيوه يا حبيبتي. طيِّب، أوِّل ما تيجي، قولي للسكرتيرة وهيَّ هتدِّيكي الحاجة. تمام. بالتوفيق. لا والله انا عندي شغل دلوقتي. أكيد طبعًا هاجي قبل العَشا. حاضر. مع السلامة.

أنهى المكالمة. وضع الموبايل على المكتب، وقال:

- بصّ يا جابر. أنا نشرت لك قبل كدا روايتين، وللأسف المبيعات مسخرة. كأنك حتى ما عندكش عشرين تلاتين صاحب يشتروا اللي انتَ بتكتبه، والمكتبات اللي انا متّفق معاها فيه بيني وبينهم مشاكل علشان انتَ شتمت ربنا في الرواية الأولى، وفي الرواية التانية قلت - استغفر الله - انّ المسيح اتولد سِفاح! وبصراحة لولا انّ عمّك الله يرحمه كان ليه معزّة خاصّة عندي، وإنه تكفّل بمصاريف الطباعة كاملةً، أنا كنت خسرت خسارة فادحة.

أصابتني صدمةٌ مُقبِضةٌ، فأخذت أمرمش بعينيَّ مرارًا غيرَ مصدِّقٍ، ولا مستوعبٍ وابلَ الحقائق الذي انثال بَغتةً على رأسي، وغطَّى صلعتي الرضيعة.

قلتُ مذهولًا:

- لحظة... لحظة لحظة. عمِّي هوَّ اللي دفعلك فلوس النشر؟!

فأومأ إليَّ برأسه مُثبِتًا (عَرَفتُ فيما بعد أنَّ أيَّ (نَشر) لكاتبٍ شابٍّ مغمورٍ لا بُدَّ وأن تُدفع (فلوسُه)!). أردفتُ بتوتر:

- أنا... أنا بصراحة ما كنتش اعرف. لكن. بسّ. بسّ المبيعات أظن مش ذنبي ولا ذنب أيّ كاتب. سوق الكتاب واقف في مصر عمومًا من زمان، والثورة السنة اللي قبل اللي فاتت وقّفته أكتر، دا غير انّ الروايتين بيتوزَّعوا فْ تلات أو اربع مكتبات بسّ، ومع واحد في محطة الرمل. دا غير انّ الكتَّاب الشباب أصلًا صعب انّ حدّ يشتري لهم علشان أسماءهم مغمورة ومحتاجين دعاية واهتمام نقدي، وعشان برضـ...

قاطع كلامي صائحًا في حدَّة:

- لأ مش دي المشكلة. المشكلة عندك انتَ. الأسلوب عجيب كأنه من الجاهليَّة... والعناوين أغرب. مين بالذمَّة هيشتري (كروان بثلاثة أجنحة)؟ وإيه (نافذة بلا كوخ)؟ يعني إيه؟

نظرتُ له شزرًا، وقلتُ في كبرياء:

– على فكرة العناوين دي انتَ كنت متحمِّس لها في البداية، وقلت لي انَّها زيّ عناوين روايات (هرتا مولر)، وقصص (يحيى الطاهر عبد الله). وأسلوبي كمان كان عاجبك، وقلت عنه إنه قوي ومبشِّر. إيه اللي حصل؟

زمَّ أنفه، وقال في تيهٍ متحديًا:

– اللي حصل انّ انا نشرت لك مُجاملة لعمَّك، بعد ما قال لي فْ ليلة كنا سهرانين فيها مع بعض انَّك كاتب حاجات نفسك تنشرها، وبعد ما قال لي انه هيتحمِّل مصاريف النشر من غير ما يقول لك. ودلوقتي عمَّك اللي كان معرّفني ظروفك الـ... مات. فلو معاك بقى 3000 جنيه حق الطباعة، أهلًا وسهلًا، ما معاكش روح دوّر لك على أيّ دار نشر تانية تقبل تنشر العَبَط اللي انتَ كاتبه ده، وابقى قابلني لو لقيت.

طافت بعينيَّ أشباحُ الغياب، وعلمتُ أنني ليس لديَّ ما أخسره، فهتفتُ فيه:

- أنا اللي ما يشرفنيش أنشر عند واحد معَرَّص زَيَّك.

جحظت عيناه من وَقْعِ سُبَّتي، فنهض غاضبًا، وهتف مشيرًا إلى الباب بسبَّابته:

- إطلع برَّه يا حيوان. الألفاظ الزفرة دي ما تتقالش فْ مكان محترم.

فنهضت مسودَّ الوجهِ، وقلت متهكمًا قبل المغادرة:

- محترم؟ يا اخي أحَّى!

ووليته ظهري، فرمى مسودة الرواية بقوة، فسبقتني إلى الباب، وصاح:

- خد القرف دا معاك.

نظرتُ إليه بجانب عينيَّ، ثم التقطتُ مسودة الرواية كابحًا غضبي، و... وانصرفت، مودَّعًا بغمغمةٍ منه، وخزت وجداني، وأدمَتْه.

- أخلاق سوَّاقين صحيح!

***

(الأدب ما بيأكِّلش عيش).

(قولٌ لولا إيمانُ الناسِ به إيمانهم بجبريل، لأَكَلَ (العيش) الأدباءُ!)

❋ ❋ ❋

(الأدب ما بيأكِّلش عيش).

(قولٌ مأثورٌ عن مجتمعٍ يقتاتُ بالرَّوْث!)

❋ ❋ ❋

فَمَا أَنْتِ يَا مِصْرُ دَارَ الأَدِيبِ
وَلَا أَنـــْتِ بالبَلَـــدِ الطَّيِّبِ

(حافظ إبراهيم)

❋ ❋ ❋

(على فكرة... أنا مألِّف الروايتين دول).

(ما أوصتني بقولِهِ القشَّةُ عند دنوِّ الغرق!)

2

- فاضي يا اسطى؟

نبَّهني الصوتُ الأنثويُّ الناعمُ، المحتدَّة نهايتُه مؤديةً صيغةَ السُّؤال، من شرودي الذي أسلمتْني إليه الصَّدمةُ الهائلةُ التي أغرقَ الملعون (محمود صبري) بها كِياني منذ قليل، وأودى بمجهودِ أشهرٍ، اجتهدتُ فيها كثيرًا.

أتاني الصوتُ من النافذة اليمنى نصف المفتوحة، فنظرتُ إلى السائلة (التي أحسبُني مررتُ بها وأنا خارج من البناية التي تقع دار النشر بالطابق الثالث منها). لعلَّ التاكسي المتوقِّف أغراها بأن تقصده، ولا سِيَّما أن هذا الشارع لا تقتحم صمتَه التاكسياتُ كثيرًا.

كان وجهُها يطفو على ظلالِ المساء؛ وبرغم عدم وضوحه، أحسستُ فيه الألفة، بل وأيقظ بعضَ الذكريات. أمعنتُ النظرَ لحظةً، فنتأتْ جذورُهُ بَغتةً في ذاكرتي. إنها هي... أجل. أكملتُ

تفاصيلَ وجهِهَا الـمُبْهَمة، مستعينًا بالصورةِ القديمةِ المرسومةِ لها في خيالي. أيوه هيَّ فعلًا.

كدتُ أرفض أن أُقِلَّها، مثلما اعتدتُ أنْ أفعلَ مع كلِّ معارفي القديمة، وزملاء الدراسة الذين هجرتُهم (عَقِب تحوُّلي الأعظم الذي بدأ منذ عامين قبل وفاة والدي بقليل). اعتدتُ أن أبسط يدي رافضًا، متى أشار أحدُهم إلى تاكسي الشيخ (ياسر أبو صليب)، الذي أعمل عليه في الوردية المسائية (من الثالثة عصرًا حتى الحادية عشرة مساءً). اعتدتُ ذلك متوخيًا الأمانَ، ومتهيِّبًا الإحراجَ الذي قد يصيبُني إذا قبلت.

لكنني – برغم مبدئي الصارم – أومأتُ إليها موافقًا بعد صمتِ التردُّد، فمدَّت يدَها من فورها إلى الباب الخلفي لتفتحه، فلم يستجِب، فالتفتُّ سريعًا، وسحبتُ لسانَ غالقِ الباب، فانفتح لدى محاولتها الثانية.

جلستْ على الأريكة الجلدية (عطرُها الدَّافئُ يُدَوِّخ!)، ثم أغلقَت الباب برفقٍ، وقالت:

– سموحة عند مول زهران.

فأدرتُ السيارة دون أن أعقِّب، منفِّذًا الأمرَ كعادتي، مثل روبوت هيومانويد ذكي يستجيب للأوامر الصوتية! فارقتُ الموضعَ الذي كنتُ قد ركنت فيه السيارة، بين سيارتين، الخلفية منهما شبه متداعيةٍ (كالتاكسي اللادا الذي أقوده)، والأمامية سوداء فاخرة من طراز شيڤروليه، يملكها صاحبُ دار النشر الذي جلدتُه بلساني منذ قليل!

لا أسمح لأحدٍ كائنًا من كان أن يتعالى عليَّ، أو يهزأ بي؛ فإن فعل ذلك، واريتُ خلفَ وجهِ الفَتْكِ أَنَاتي وصَبْري، وفعلتُ ما تجحد العينُ – إن رأتْه – سالفَ أدبي وتهذيبي. تقول الحكمة: اتَّقِ شرَّ الحليم إذا غضب؛ ولَعَمري إنني أثبَتُ الحُلَماء جَنانًا، وأبذؤهم – إذا غَضِبْتُ – لِسانًا!

أخمدتُ صورة الحقير محمود صبري، وأيقظتُ انتباهي وصوَّبته نحو الحورية (خَفَقَانُ قَلْبِي لا يُطمئِنُني!) التي ركبت معي قبلَ قليل. أميرة الحبِّ المضمر. ساحرةُ القلوب التي لا تُعْوِزُها عصا. وادي الفتنة المغلَّف بغلالة احتشام.

حين فارقتُ الحيَّ (اللي ما يتسمَّاش!) الذي فيه دار الحَلبة، ووصلتُ إلى شارع (السلطان حسين) من جهة (ميدان الخرطوم) المشرف عليه الـمَجمَع الطبي (الذي أضرم أولَ جَذوةٍ مُرْدِيَةٍ في خيط حياتي)، والتهمتُ منه ثلثيه اللذين لم يشْبَعْهما زحامٌ في هذه الساعة من المساء (الثامنة)، داخلتني الرغبةُ في محادثة (المعرفة) القديمة الجالسة خلفي. وشجَّعتني على ذلك، الإشارةُ الخفيةُ (وما أكثرَ انصياعي لومضاتِ الصُّدَف، برغم اعتقادي أنَّ هذا مَحْضُ دجلٍ وتخلُّف!)؛ أعني قَبولي توصيلَها، برغم سابق معرفتي إياها. وحفَّزني على ذلك أيضًا ضَيْقي من (الحلُّوف) صاحب دار النشر.

قلتُ لها، والسيارة تركض في الطريق الأسود اللامع المنعكسة عنه أضواء مصابيح الرصيف الصفراء:

- يمنى؟

وانتظرتُ ردَّ فعلِها على المرآة الأمامية المتدلِّي منها بخيطٍ، مثلثٌ أحمرُ من الفلِّين، ينشر رائحة بونبون الفراولة في أرجاء السيارة، ويتأرجح ذاهبًا آئبًا كالبندول.

نظرتْ إليَّ بعينيها الضيقتين وافرتَيْ جلد الأجفان والأهداب كعيون الروسيات، مدقِّقةً في ملامحي (هل يختلفُ وجهي اليومَ، عنه من سنتين؟!). ولم أنتظر أن تُبدي ملامحُها اختلاجةَ التذكُّر، أو أن تنبس بما يدلُّ عليه. وفرت عليها ما لعلَّ حياءَها مانعُها من فعلِه، وقلت:

– أنا جابر عبد القادر، وانتِ من سنتين تقريبًا كنتِ قلتِ قصيدة في ندوة شعريَّة للطلبة في كلية صيدلة، أنا كمان كنت قلت فيها قصيدة.

قطَّبَتْ لحظةً، ثمَّ عاد حاجباها (اللذان يشبهان القطعة الأذنية لنظَّارةٍ من طراز إسكادا!) إلى مستواهما الطبيعي، وقالتْ مديرةً وجهها ناحية النافذة اليمنى في لا مبالاة:

– تشرَّفنا.

هي إمَّا ناسية، وإما تحاول التَّنَاسي. لو كانتْ ناسيةً فلا جُناح عليها. أنا نفسي لا أذكر إلَّا اسمها الأوَّل (يمنى)! لكن... أنا متأكد من أنها تعرفني؛ فلقد تلاقت عيوننا كثيرًا، قبل وبعد

الندوة الشعرية (البعيدة التي سبقت تحوُّلي بتسعة أسابيع!)، وأثناء إلقائها قصيدتها، وإلقائي قصيدتي. أذكر هذا كأنه حدث أمسِ. ذابت رُوحي في أتُّون حسنِها الروسي بعد ذلك اللقاء الشعري، واستولى على فكري سحرُ صوتِها الذي يُحرج بنعومته أرقَّ مقطوعةِ بيانو لـ (لِيستْ)، فكتبتُ قصائدَ شتَّى (سميتُها الروسيات)، أوحت إليَّ بها، وكان مطلع أول قصيدةٍ منها:

دي يمنى
ولَّا كاترينا إيڤانوڤنا؟
باقضِّي الليل افكَّر فيكِ
واتمنَّى
أقرَّب من عينيكِ السُّود
وادوب فوق عُودِك المفرود
يا أحلى فْ عيني مِ الجنَّة

غريبٌ أنْ يكونَ وجه هذه الأميرة الحسناء، هو ما يداويني بعد شِجاري مع صاحب دار النشر. ولكن... ما الغريب؟ إنَّ وجهها أشبه بالڤودكا ID التي تُداوي كلَّ أحزاني، والتي

تنتظرُني زجاجةٌ منها في غرفةِ صديقي المجنون طارق، الرابضة فوق سطح إحدى عمارات أرض عبد الباقي (اشتريتُها أول من أمس، واستبقيتُها عنده تحاميًا لتطفُّل أختي مريم وأمي، اللتين تشبهان مرشدِي الداخلية!)، وغدًا (الخميس) سنفضُّ بكارة هذه الزجاجة السحريَّة معًا كما اعتدنا كلَّ أسبوع.

لم يورثني اليأسَ تجاهلُها إيَّاي، فسألتُها محاولًا تخريق ستار الصمت:

– وإيه أخبار كلية الصيدلة؟

فالتفتتْ بحدَّةٍ، وسدَّدَتْ إلى المرآة الأمامية نظرةً، رجَّت السيارةَ رجًّا عنيفًا! لا لم ترجَّ هي السيارة بالتأكيد، بل أخدودٌ نحيلٌ عَرَضَ للعجلات، متزامنًا مع نظرتِها الثاقبة!

سألتني في حزم:

– إنتَ تعرفني منين؟

– أنا لسّه قايل. شفتك في ندوة شعرية فْ كلية صيدلة من سنتين.

– بسّ...

وأطبقت شفتيها في حيرة، تحاول تجميع الكلام، ثم استدركت:

– بس أنا مش فاكراك قوي.

– أنا اللي قلت قصيدة (قميص يوسف)، وأظن عجبتك.

ابتسمت ابتسامةً واسعةً، أجرتْ في ذهني كلَّ (الروسيات) التي كان نَظْمُها مهربي إبَّان المحنة العظمى التي شهدت تحوُّلي الأكبر!

– دا كان من زمان.

– سنتين فعلًا يُعتبروا – بعد كل اللي شفناه – مدة طويلة!

– أنا قصدي من زمان، أيام ما كنت مهتمّة بالشعر. دلوقتي مش مهتمّة قدّ كدا.

قلت واجمًا:

– بسّ القصيدة اللي انتِ قلتيها، كانت مُبشِّرة. أنا فاكر منها سطر أظن قلتِ فيه: دُرُوبُ الوَهْمِ مَا عَادَتْ تُرَحِّبُ بي. مش كدا برضه؟

رفعتْ رأسَها لحظةً، ثم قالت مصحِّحَةً:

- دُرُوبُ الحُلْمِ.

قلتُ مُدَاهِنًا:

- الله!

- يعني مش للدرجة دي.

والله لو قال هذا الوجهُ العبقريُّ شعرًا سخيفًا مِنْ مِثْل (بتخلِّفينا ليه لـمَّـا انتِ مش عارف إيه؟)، لصرخ السَّامعون طربًا وانتشاءً!

- الكُلِّية للأسف شغلتني عن الشعر تمامًا. ودلوقتي الشغل. يعني.

- إنتِ بدأتِ تشتغلي؟

- آه من تلات شهور.

- إيه بقى؟

- معيدة في قسم الفارماكوبيا. وانت بقَى بتشـ...

قطعت كلامَها بَغتةً، مستشعرةً الإحراج، لكنني أجبتها

برغم ذلك، بعد أن ابتلعتُ ريقي بصعوبة قائلًا:

– أنا فعلًا زيّ ما انتِ شايفة. باشتغل على التاكسي ده. قررت من سنتين أتفرَّغ للكتابة، والتاكسي ده بيساعدني. صاحب التاكسي تاجر سلفي، طيِّب... عمي – الله يرحمه – ساعدني أشتغل معاه.

وسكتُّ، فلمحتُ على المرآة الأمامية وجهَها الثلجيَّ مرسومًا فيه اهتمامٌ متنامٍ، فقلتُ متذكِّرًا، بعد لحظاتِ صمتٍ لم ينطق خلالَها إلا محركُ السيارةِ شاكيًا من بنزين 80:

– على فكرة انا مألِّف الروايتين دول.

وفتحت باب التابلوه، وعيناي لا تحيدان عن الطريق، وأخرجت منه روايتيَّ، ثم أغلقت الباب بظاهر يدي الممسكة بالكتابين (رأيتُ – بنظرةٍ خاطفةٍ – الكتابَ العلوي منهما، مقلوبًا على وجهه، وعلى غلافه الخلفي صورتي، وفقرة مقتطفة من الرواية). ناولتها إياهما، فقالت:

– ما شاء الله! نافذة بلا كوخ. كروان بثلاثة أجنحة.

وهنا انفجرتْ ضاحكةً، فآلمتني ضحكاتُها. لكنَّها تمالكت نفسَها سريعًا، وقالت في نبرةِ اعتذار:

– معلشّ والله أنا آسفة. مش قصدي. بسّ... لأ خلاص خلاص!

(أموت واعرف إيه اللي كانت عايزة تقوله وقَطَعته بـ (خلاص خلاص)!).

قلتُ بنبرةٍ كئيبةٍ، وصورة صاحب دار النشر تتراقص أمامي على الطريق:

– بتعتذري ليه؟ وظيفة الأدب توليد المشاعر في القارئ، والضحك والاستهزاء مشاعر.

انطوى وجهها في المرآة على تكشيرةٍ أجملَ مِنْ بشاشتِها! وقالتْ وهي تنظر إلى الكتابين نظرةً متلاطمةَ المعاني لم أستطِع تفسيرَها:

– والله ما كان قصدي يا جابر. أنا آسفة بجدّ. ألف مبروك عليهم.

ومغيِّرةً الموضوع (بطريقة واضحة قوي!) أردفَتْ:

– هيَّ ليه نمر العربية ملزوقة على التابلوه، وعلى ضهر الكرسي اليمين؟

– مش عارف والله الشيخ عامل كدا ليه! بسّ هيّ عامَّةً عادة عند بعض السوَّاقين، حِكْمتها مجهولة!

وكنا قد بلغنا ميدان ڤيكتور عمانوئيل، الذي يقود المنعطف الأيمن عنده إلى مول زهران، فقلت لها وأنا أدير الدركسيون يمينًا:

– ابقي اقريهم بقى.

فقالت مبتسمةً:

– إن شاء الله.

ومُستطردةً في لهفة:

– هانزل على جنب.

فجنحتُ من فوري إلى الجانب الأيمن من الطريق، وأبطأتُ حتى توقفت السيارة تمامًا بجوار شجرة پوانسيانا صلعاء.

- إنتِ ساكنة هنا؟

أجابت مادَّةً يدها الناعمة بضَّة الأصابع نحوي:

- آه يا جابر. شكرًا على التوصيلة، وبالتوفيق.

نظرتُ إلى يدِها في شممٍ، وقلت:

- كدا عيب. خلِّيها عليَّ.

رفعت حاجبَها الأيمنَ فاحم السواد، وقالت مميلةً رأسَها:

- لا. عيب إيه؟ الشغل شغل.

أخذت ما مدَّت به يدَها على مضضٍ، وغمغمتُ بكلامٍ لا أذكره!

ترجَّلتْ من السيارة، وسريعًا انسربَتْ في البناية مظلمة المدخل التي توقفتُ عندها، بعدَ أن ألقتْ على البواب (المحظوظ) السلام، ممسكةً بيمناها روايتيَّ، وبيسراها حقيبة يدها السوداء اللامعة المكتنزة، وبينهما خصرها الزئبقي المتأرجِح. خصرٌ تثبُتُ الأبصارُ فيه كأنَّ عليه من حَدَقٍ نطاقًا، زيّ ما قال المتنبي! رماني البواب بنظرةٍ عدائيةٍ لطولِ رُنوِّي، فانطلقتُ بالسيارة هاربًا منه، ومن طوفان الذكريات الذي شرع

يغمرُني، ومن الآمَالِ المؤلِمة، والمطامِحِ الـمُحَطَّمة، والأحلامِ الـمَـاحِلَة؛ وحين نظرتُ فيما أعطتني إياه حبيبةُ الماضي، وجدته ورقةً بعشرة جنيهات، غصَّ بها حلقي. هذا المشوار أصلًا أجرته خمسة جنيهات لا غير! أنا أترفَّع عن شفقة الناس، فكيف إذا كانت من حبيبة الماضي؟! وضعتُ الورقة في جيب الجاكت الداخلي، واستأنفتُ السَّيْر، مستقبلًا مع كل متر أقطعُهُ بالسيارة مُدَى الكآبة القاتلة. وجعلتُ طوال دقائق الوردية المتبقية، أصبُّ اللعنات على دار الحَلبة، وأتمنَّى أن يُطوى الزمان، فيأتي الآن الغد، وأصبح في غرفة طارق، فأنسى بالشراب السحريِّ الذي اشتريتُه يوم الاثنين، همومي التي بدأتْ تطرُقُ بابًا في ذهني، لا عزمَ عندي يمكنني من ردِّ الوحشِ المتربِّصِ بي وراءه!

3

- سلامو عليكم.

انشرح لـمَّـا رآني الشيخ (ياسر أبو صليب)، فقام من وراء مكتبه الخشبي المنزوي بآخر محلِّ الأدوات المنزلية والبلاستيكات الذي يتكسَّب منه (إضافةً إلى التاكسي). اقترب منِّي، وهو يتمايل في الطرقة الواسعة الواصلة بين المدخل ومكتبه، وردَّ السلام بابتسامةٍ تقطُر فرحًا.

بدا مبتهجًا. هو دائمًا متقلِّب المزاج، لكنَّ أحوال (روقانه) لا تكون بهذه الصورةِ عادةً! لا أنكر أن ابتسامتَه أغرتْنِي بالابتسام؛ فانبساط الثغر مُعْدٍ تمامًا كالتثاؤب! تقدَّمتُ في المحل خطوتين، وصافحتُه. شدَّ على يدي براحتِه الطرية الناعمة، ثم سحبها وهو يقول:

- اتفضَّل يا جابر.

أخرجتُ من محفظتي نصيبه اليومي من الأجرة (يأخذ عن

كل ساعةِ عملٍ عشرة جنيهات، وما يفضل أستبقيه لنفسي)، لكنه استوقفني بإشارةٍ من يده، انحسر بها جزءٌ صغيرٌ من كم عباءته الكحليَّة عن رُسْغِه، فبدا لي واضحًا... بالله عليك، امحُ هذا الظنَّ من ذهنك فورًا! ليس معنى أنَّ لقب عائلته (أبو صليب)، أنَّ في رُسغِهِ وَشْمَ صليب! ما بدا لي إلا أثرُ جُرحٍ قديمٍ مُرعبٍ، أيُّ إنسانٍ معرَّضٌ لمثله. ما علينا. أقول إنه استوقفني بإشارةٍ من يده، وقال بنفس البهجة، ونفس الابتسامة التي تزيد شعر شاربه المحفوف انتشارًا في وجهه:

– خليهم كلهم النهاردا ليك يا جابر. جزاك الله خيرًا.

رمقته في دهشة، ولم أعقِّب، فقال مبيِّنًا بنبرةٍ فيها مسحةٌ من فخر:

– دي حلاوة الولادة. الحمد لله ربنا رزقنا النهارده بتوءم زيّ القمر.

لم أبتسِمْ، ولم أعبِسْ. نظرتُ إليه نظرةً جامدةً طويلةً، وطفرتْ في خيالي فجأةً صورتُه عاريًا، يهزُّ كرشه الضخمة، ويهجم بأيره

المنتصب وسط شعر عانته (الذي لا بد وأن يكونَ قد شاب!) على إحدى زوجاته، فيحتضنها، فتئنُّ من انتصابيه (انتصاب الكرش وانتصاب الأير)، ثم يرهزها، فترتهز، حتَّى يلقمها بُذُورَه و... حرَّكتُ رأسي يمينًا ويسارًا بعنفٍ، كمن يزجر ذبابةً لزجة، دفعًا لهذا الخاطر الفظيع. و...

- فيه ناموس ولّا إيه يا جابر؟

أجبتُه كاذبًا، بعد حركتي الغريبة:

- آه والله يا شيخ ياسر. الناموس ما عادش بيفرَّق بين الشتا والصيف!

يا نهار اسود! إيه الفحل ده؟! جاوز السبعينَ عامًا، ولم يزل قادرًا على تلقيحِ النساء، بل واستيلادِهنَّ توائم! أحَّى!

- واعتبر يا سيدي الموضوع ده لأسبوع كامل.

تذكَّرتُ صورتَه التي طرقتْ خيالي منذ لحظاتٍ، فقلتُ له شاردًا:

- موضوع إيه بالظبط؟!

فقطَّب لحظة، ثم قال:

- حلاوة الولادة يا جابر. صحصح معايَ كدا.

رَسَمَتْ منحتُه الغريبةُ على وجهي ابتسامةً قصيرةً، وقلتُ له:

- بارك الله فيك يا شيخ ياسر.

- وانتَ مش ناوي تتجوِّز بقى ولَّا إيه؟

فأجبته بالكليشيه الذي أجيب به أيَّ إنسانٍ عن هذا السؤال دائمًا (مداراةً لشذوذي!):

- دُعاك معانا بقى يا حاجّ.

- ربنا يرزقك بذات الدين.

واستأذنتُ منه، معيدًا عليه كلماتِ الشكر، وخرجتُ من المحل على عجل، إلى شوارع (سيدي بشر).

الشيخ ياسر سلفي عتيد. لحيته الطويلة التي تشبه ضَرع الماعز تشي بقِدَم تحوُّلِهِ سلفيًّا. محله طيب السمعة، وكثير الرواد، وموقعه متميِّز (أيُّ محلٍّ يشغل ناصية شارع رئيسي، هو - دونَ شكٍّ - متميِّز الموقع).

من العجيب أنَّ عمِّي (الذي كان من أشدِّ الناسِ عداءً للسلفيين ومعتقداتهم) هو الذي دلَّني عليه، بعد اتِّخاذي قرارَ التفرُّغ للأدب، وتَرْك الكُلِّية! ذلك القرار الذي أودى بحياة أبي في صيف 2011! لحسن الحظ، كان اختيار عمِّي لصداقته موفَّقًا، خلافًا للنطع صاحب دار النشر الذي نكص على عقبيه بعد وفاته. ولعل هذا راجعٌ إلى عَلاقة عمي (ربيب الكيف) السطحية بالشيخ، التي كان قوامها التعامل المحترم، وكانت في منأى عن التطرُّق إلى الحياة الشخصيَّة، التي تشتمل - حتمًا - على مواضعِ اختلافٍ لا سبيل إلى درءِ مضارِّها إن ظهرت.

ابتسمتُ في شحوبٍ، وأنا واقفٌ على الرصيف الجانبي لطريق الكورنيش، أنتظر (مشروعًا) لأستقلَّه إلى (مصطفى كامل - فليمنج) حيث أقيم. ابتسمتُ للمفارقة الطريفة التي باسم الشيخ ياسر. اسمه (ياسر عبد الكريم أبو صليب). لقب عائلته (أبو صليب)، وبرغم هذا اتَّبَع منهج مكفِّري من وُشمت بأرساغهم الصلبان! حاولتُ الابتسام مرَّةً أخرى فلم أستطع. اليوم حافل بالأحداث والذكريات. وأغلب ما فيه

مُحزِن. وتبعاتُ هذا اليوم (التي أهونُها دَيْنٌ ورَّطني فيه عمِّي لا بد وأن أسدِّده في أقربِ وقتٍ لأسرته) تُرهق فكري، وترسل ومضاتٍ متتابعةً إلى سفينة الصُّداع الحربيَّة. دَيْنٌ. رغبةٌ في ردِّ الاعتبار. ذكرياتٌ. روسيَّاتٌ. ضحكاتٌ مبكيةٌ. فكرةٌ سوداءُ أحاول أن أبتعد عن الباب الذي يحجزها بذهني. طريقٌ كأنه ابتلع كلَّ (المشاريع)!

أشرتُ - بعد أن عزَّت المواصلات الرخيصة - إلى تاكسي، مطمئنًّا لثروتي الصغيرة، وهتفتُ فيه - لَمَّا اقترب - بوجهتي، واستقللتُه راجيًا ألا تصدمَني (مرشدتا) البيت، بمصيبةٍ جديدةٍ، تقوِّض عقلي للأبد!

4

حسنًا... لن يكتمل اعتذارُها عن السخرية من عنوانَـيْ كتابيَّ إلا بعد أن تُذهلَ بمحتواهما، حين تُنهي قراءتَهما؛ فهو بذلك خليق. ولكن... كيف أعرف ردَّ فعلِها؟ هل سأراها بعد اليوم؟

استلقيتُ على فراشي الصغير، بغرفتي الصغيرة، بالشقة الصغيرة، التي تشغل شطر الطابق الثالث (قبل الأخير)، والتي أقيم فيها مع أمِّي (الـمُرشِدَة الكبرى!)، وأختي الصغرى مريم (الـمُرشِدَة الواعِدَة!). أختي الكبرى سحر في بيت زوجِها بالعامريَّة، وهو رجلٌ ثقيلُ الظلِّ، آدَر (منتفخ الخُصيتين). كيف عَرفتُ هذه الصفة الدقيقة؟! بالتأكيد لم أضطجع معه عاريًا (تكفيه أختي!). بل ظهر لي عُرْيُ نصفِهِ السفلي، حين زرتُهم ذاتَ صباحٍ بعيدٍ، عَقِبَ زواجِهما بشهرٍ ونصف، بعد إلحاحٍ من الكائنِ الـمُسَمَّى (أبي)، بقصد الاطمئنان عليهما. فتح الباب،

ولعله نَسِي غلق أزرار الشورت الداخلي (أجل... فَتَحَ الباب بالشورت الداخلي!)، فاستقبلتني خُصيتاه الضخمتان (كخُصيتي الشيمبانزي)، والمتدليتان في غباءٍ، ينافس غباءَ ثديين ضخمين متعرِّقين، (في غرفةِ كشفِ طبيبٍ، نظَّارتُه سميكة العدسات!)، يشكو الجلدُ الذي يغطيهما التهابًا مزمنًا! وفوق طوطمي الغباء، يستقر عُضْـ... ما علينا من هذه الذكرى المقززة، التي تطفر إلى خيالي كلما عَرَضَ لي الحديثُ عنه، أو لَقِيتُه. هو مهندسٌ زراعيٌّ، ولعلَّ هذا يشفع له التشابهَ الضخمَ بين خُصيتيه والطماطم! ما علينا مرَّةً أخرى من هذه الذكرى. أودُّ فقط أن أشيرَ إلى أنَّ مودَّتي لأختي فترتْ عَقِبَ هذا الزواج، الذي كنتُ رافضًا له جدًّا، وتحمَّس له أبي رَحِمَه الـ... بل لا رَحِمَه الله! رفضته لأنني كنتُ أشمُّ في العريس روح (البَضْيَنة) التي تملأ كلَّ أعضاء جسمه، وخفتُ على أختي من أن يُفسِدَها (بضانُه)، كما يُفسد كلَّ (المدامات) اللاتي أوقعهنَّ حظُّهُنَّ الشائك، في أحضانِ شخصٍ (بَضِين)، شهواني، لزج، ضطخضطقطق (أو أي لفظ آخر لا وجود له، يتكوَّن من حروفٍ ثقيلةِ الظل!). لكنَّ رفضي

لم يعتدَّ به أحدٌ، وتسلَّم الوحشُ الكاسرُ الجبَّارُ أختي، وشرع يحوِّلها بحروبه الليلية الشعواء (التي يقاتل فيها بسلاحِه البهيميِّ، حُفْرَةً طريَّةً رطبةً بائسةً) إلى (كائن) ثقيل الظل مثله، ما عاد يُعاملني إلا بفتور!

عندما دخلتُ هذا المساء إلى الشقة، بعد أن أوصلني التاكسي الذي ركبت فيه (فشخرةً!)، وجدتُ الأضواءَ مُطفأةً، والسكونَ متربِّعًا بالأرجاء كافة. أجل، كانت (المرشدتان) قد نامتا. هما لا تهتمان بي، إلا في نطاق التطفُّل. أمي تتعامل معي كأنِّي بركة ماءٍ بإحدى حارات كيبف، خطا وسطَها قطٌّ أعور، منذ قرَّرتُ التفرغ للأدب (عقب النبأ المأسوي الذي حفَّزني على اتخاذ هذا القرار بعيد الجذور)! تظل على هذه المعاملة، حتى تلقَى في أفعالي شيئًا يقتضي الزجر والتقريع. هي ومريم أشبه بجارتين شمطاوين، تملِكان الشقة، غير أنهما لا تطلبان أجرًا عن السماح لي بالسُّكنى في إحدى حجراتِها، وقضاء حاجتي في حمَّامها. لم أعد أطيق أيًّا منهما. مريم مراهقة تافهة، أشد هزالًا من بعوضة، تدرس في القسم الأدبي من الثانوية العامة، يضيع

على دروسها الخصوصية معاشُ أبي، وهي حتمًا ستستسلم لأيِّ خاطبٍ (بَضِين)، لكي تُكمل دورة الحياة البشرية، فلا فائدةَ تُرجى من تعليمِها أصلًا! لا فائدة أصلًا تُرجى من التعليم في مصر! وأمِّي أصبحت أقرب إلى الموتى منها إلى الأحياء، ولا غرو؛ فهي تنتظر الموت، وترى في وجهي كلَّما نظرَتْ إليه في الأَصْبَاح، سببًا قويًّا لتفضيل الموت على الحياة. تُرَدِّد مؤخَّرًا قولَها: يا ريتني ما كنت جبتك للدنيا! ومن أسباب هذا القول، تحميلها إياي مسؤولية موت أبي (برغم أنه...)! ما علينا.

نظرتُ - من وضع الرقود - إلى الكمبيوتر المتربِّع على المكتب الـمُحاذي لفراشي. هو الآخر نائم، يستريح بعد مخاض روايتي الأخيرة. أنا ألد كتبًا، وغـيري يلد بشرًا، فـهل أكتشف - إذا تزوَّجتُ - عُنَّةً فيَّ؟! بالطبع لا. أم رياض (التي جمعني بها حدثٌ لا أغربَ منه) شاهدةٌ على أنني... على أنني... عادي. وأنا - على كل حال - لستُ متحمِّسًا للزواج على الإطلاق (لسببٍ عقائديٍّ دقيقٍ، يوافقني عليه طارق تمامًا)! لستُ بالتأكيد مثل الشيخ ياسر فحل الفحول، الذي يحرص (ويقدِر)

بعد السبعين على الزواج والإنجاب. نبرته الواشية اليومَ بفخره وسعادته بمولد التوءم، لا تكشف عن استحيائه (كأغلب الناس) من التحدُّث عن الجنس، الذي هو عِلَّة حدوث الحمل، وهذا أمرٌ غريب! كيف يفخر إنسانٌ بالنتيجة، ويخجل من السبب؟ لكنَّ هذا للأسف منتشرٌ بين الناس في كثيرٍ من الأمور، ولاسيَّما في هذه الأيام التي يغُضُّ فيها الناسُ الطَّرْفَ عن الثورة (التي هي السبب الرئيسي في كلِّ ما يمور في الواقع المصري حاليًّا)، في نفس الوقت الذي يمجِّدون فيه بعضَ إفرازاتها (من سياسيين مقززين، خدودهم مدهونة بالسمن البلدي!). آه يا شيخ ياسر! آه يا برج الشهوة، ومسلَّة الخصوبة! لِمَاذا كلُّ السلفيين فحولٌ خُرافيُّو الغُلْمَة، متوقِّدو الشَّبق؟ هل في الأحاديث، وأقوال شيوخهم ڤياجرا غير مرئيَّةٍ لسِواهم؟! ماذا أقول؟ ماركس أفيون، وأنا ڤياجرا؟!

أفّ... لماذا تعصف بذهني الذكريات، والأفكار، والتساؤلات؟ دوَّى صفيرُ الصداع، واقترب حاملًا معه صورةَ (محمود صبري). لقد طغى اليومَ عليَّ. كأنَّه تحيَّن وفاةَ عمِّي

لكي يُفصِح عمَّا يُكنُّه من مشاعرَ مُنْتِنةٍ نحوي، ولعلَّه كان يحمل مثلها تُجاه عمي، ولكنه أخفاها، وأخذ يُنافقه (رغم صداقتهما القويَّة)، ليستلب مالَه، وألفةَ المنادمة في سهرات الفرفشة! ما هذا؟ صورة عمِّي أيضًا تقترب. أين هو الآن لأرسلَ إلى مرقده البعيد، لومي وثنائي؟ حبَّب إليَّ القراءة منذ الصِّغَر. عرَّفني بدهاليز مكتبته فصارت خيرَ صديقٍ لي. دلَّني على أكشاك شارع النبي دانيال رخيصة الكتب، ثمينة المحتويات، فكوَّنت منها مكتبتي التي تشغل من غرفتي كرتونتين كبيرتين، وخِوانًا. علَّمني قيادة سيَّارته. دلَّني على الشيخ ياسر حين قرَّرت التفرُّغ للأدب. عضَّدني وصدَّ عني غضبات أبي الشعواء أثناء تحوُّلي الأكبر. لكنه أيضًا يستحقُّ اللوم. ألم يُورِثْني دَيْنًا ثقيلًا لا أملِك منه إلَّا نصفَه (تحويشة عمري التي أحتفظ بها في الـ... لا لن أفصح عن مكانها. لا أحد يستحق أن يوثق فيه!). ألم يجعل بحِيَلِه اللفظية ابنتَه الوحيدة (رباب) شبه مخطوبةٍ لي؟ و(رباب) ليستْ بأجمل الفتيات جسمًا ولا صوتًا ولا عقلًا. نهداها ثقيلان، وأنا أُبغِض النهودَ الضخمة! قد تثير من بعيد، لكنَّها حين الجماع

تصبح كابوسًا ثقيلًا مُرهِقًا شنيعًا (أخبرني طارق بذلك عن تجربةٍ!). هذا غير أنَّ بَخَرَها لا يُطاق، ويكفيك أن تتخيَّل أنَّ رائحةَ فمِها بلغتْ من القوة، أنها كانت تصل إليَّ (حين كنت أجالس أباها في الصالون وهي حاضرة)، برغم أن كرسيَّين على الأقل كانا يفصلان بيني وبينها! هذا غير إغماءاتِها المتكرِّرة التي تدهَم بالرعب أيَّ إنسانٍ يصادفُها على الأرض من أثرِها!

لكنَّ أفضال عمِّي تكاد تمحو سيئاتِه. لن أنسى أبدًا أنه حماني من أسبوعَي اضطرام أبي اللذَين مهَّدا لانطفائه. أبي مات بعد قراري (ترك الدراسة) الذي كان سببه المباشر، رسوبي في الفرقة الرابعة من كلية الصيدلة (الجَذوة الملعونة التي عاثت بحالتي النفسية فسادًا). مات بعد أسبوعين، صبَّ في أول يومين منهما عليَّ ألوانًا من السِّباب. ضربني بالحزام. سجنني في غرفتي. لم يُفطر معي في رمضان (الذي لا يكتسبُ قدسيةً عندي إلا باجتماع الأسرة لحظةَ الإفطار). وفي النهاية طردني، فلجأتُ إلى عمِّي (الذي كان بينه وبين أبي خلافاتٌ كثيرةٌ). أبَانَ لي هذان الأسبوعان كلَّ نقائص أبي التي لطالما حجبها عنِّي

سُكري بحلاوة العِشرة. تحشيشه المستمر. عَلاقاته النسائية. شرب الخمر. لا؛ بل الإفراط في شرب الخمر (عكف طوال الأسبوعين – كما حُكِيَ لي – على زجاجات الخمر الرديئة التي ضاعفت سلوكه الفاسد، حتَّى إنَّه فعل بأمِّي شيئًا بَشِعًا حين لامته على تضييعه مدَّخراتِه التي اتَّفقت له من بيعه قيراطَين كان قد ورثهما عن جدِّي في كوم حمادة، ليستعين بثمنِهِمَا على زواجٍ لم يتمّ، كان عازمًا عليه قبل نتيجة الرسوب بثلاثة عشر يومًا). الإفراط مُميت (ما طعم الموت؟). أنا نَفسي أعاقر الآن الڤودكا (التي كنتُ قبل أيام التحوُّل أمجُّ كلَّ بناتِ جلدتِها من الـمُسكِرات). أعاقرها ولكن بحساب، كما أن آرائي الأخلاقية اليوم عمومًا تختلف عنها من عامين. كنتُ في الماضي أكثرَ تقزُّزًا من الأشياء المرفوضة اجتماعيًّا ودينيًّا (حتَّى تعرَّفتُ على المجنون طارق في وقتِ محنة التحوُّل). صداقتي لطارق غيَّرت مني كثيرًا... من اللقاء الأول... جَعَلَتِ الشَّخصَ الذي سخر من رسالة أبيه التي حملتها له أخته: (إحنا ناس على قدّ حالنا، ومعاشي بعد ما اموت مش هيكفِّيك حتَّى تاكل عيش حاف)،

بقوله: (مادام مش قدّ الجواز، اتجوِّز ليه وجاب عيال؟!)؛ والذي ردَّ على نصيحة أبيه له بترك الأدب والاهتمام بالدراسة، وهو يزوره بعد أن أخبرته أمُّه بأنه على وشك الموت، بهذه العبارة (التي سبقت عودته ساخطًا إلي بيت عمِّه الذي أُحضر منه):

- أنا خلاص أخدت قراري؛ وحتَّى لو هاسمع نصيحة حدّ، مش هتبقى نصيحة واحد خمورجي وحشَّاش.

جعلتْ صداقةُ طارق، ذلك الشخصَ المستعدَّ لمحاربةِ (سقطات البشر الأخلاقية النائية عن محراب الفضيلة)، والثورةِ على مقترفيها، غريبًا عن هذا الذي كان يشتري أول من أمس زجاجةَ ڤودكا من فرع (درينكيز) بسيدي جابر!

خلال أسبوعَي الآلام، تعلَّمتُ من عمِّي القيادة. علَّمني على سيَّارته الهوندا السَّوداء المريحة سهلة الانقياد. الفرق بينها وبين اللادا (المعفِّنة بتاعة الشيخ ياسر) شاسِع، لكنَّها اليوم ليس لها وجود. باعتها بعد موتِه زوجتُه (هذا الأسبوع؛ ولا أعرف كيف وجدتْ مشتريًا بهذه السُّرعة!) لا حاجةً للمال، بل لأنَّ

أسرتَه الصغيرة، لم تضمَّ مَن بوُسعِه قيادتها سواه، فانتفت الحاجة لها. لو كانت رباب تحسن القيادة، لعانَى نهداها العظيمان من ارتجاجات الطريق! ليتني ما رأيتُها عاريةً أثناء إقامتي في منزل عمِّي إبَّان أسبوعَي التحوُّل!

عمِّي. عمِّي. عمِّي. تقريبًا هُوَ الإنسان الوحيد الذي نجا من هجمات لساني الشَّعواء (مَنْ كنتُ حقًّا قبل عامين؟!). في ملامحه طيبة، وفي أفعاله كلِّها كذلك (عدا سعيه نحو تزويجي برباب، وإلصاقه دَيْنًا بغيضًا بي). كان بوسعي أن ألومه في حياته على سعيه غير المحمود، برصاصتين لسانيتين، لكنِّي (كبَّرت دماغي)، وليتني ما فعلت! آه منك يا لساني! إنه مطرقة فولاذيَّة، تحطِّم أسوار كلِّ حصنٍ للظلم. والله لولا تشاؤمي الـمُبكِّر من نتائج الثورة، وتسامي أحلامي على أحلام أكبر الثوريين، وتحليقها في مدينة فاضلة (مدينة أفلاطون إن قورنت بها فلن تعدُو قدر قريةٍ ضئيلةٍ تسكنُها جُرذان أصابَها الجرب) لسلخت مبارك ورجاله (الذين ما زالوا يحكمون!)؛ لكنَّ يقيني من أن البلد (بايظة بايظة)، جعل مفرِّي إلى الأدب؛ بلاد

العجائب. في روايتي الأخيرة (دموع الحجر) التي بصقها الملعون، كانت جرعة الفرار أكثر تركيزًا من الروايتين السابقتين (والفضل لأمّ رياض!). لكنْ (*صداع ابن مَرَة!*) كيف لي أنْ أنشرَها؟ لقد نبذتني دار الحَلبة. وما هي دار الحَلبة؟ إنها أحقرُ دارٍ جُعِلتْ للأدباء. كيف يكون مصيري إذًا إن حاولتُ النَّشر في عاصمةِ المستنقعات، دون عون عمِّي الذي يتحلَّل الآن؟ هل سأُرْكَلُ على عتبتِها، أم أُذْبَحُ بحدِّ ورقة الغلاف؟

غطيتُ مَحْـ(*صداع فظيييييع*)ـجِرَيَّ براحتيَّ، وبدأتُ أُدَلِّك عينيَّ، عسى أن تمَّحي الذكريات البعيدة والقريبة، لكنَّ التدليك قلَّب في دماغي الصور وأعاد ترتيبَها، فقفزت بغتةً ذكرى امتداد يد حبيبة الماضي... سخريتها من عنوانيْ روايتيَّ. (مشاعري نحوها غريبة!). بياضها الثلجي... قوامها نادر الوجود... الرُّوسيات.

جلستُ من رقدتي فجأة (بالرَّاحة الصُّداع ما بيرحمش!). تناولت من درج المكتب الأخير شريط الكتافلام. أخذت قرصًا. ابتلعتُه بأربع رشفات من زجاجة المياه البلاستيكية

المجاورة التي اعتدت وضعها بقرب كرتونتي الكتب (لتقليل عدد مرات مفارقتي غرفتي أثناء وجودي بالمنزل). ومن درج المكتب الأول، أخرجت أجندة عمرها عامان. مسحتُ ظهرها الذي أنثر عليه (وعلى أظهُر جميع دفاتري) بودرة أطفال، لأكشف أيَّةَ محاولةٍ للتلصُّص! لا أنثر البودرة على الوجه، لكي أمهِلَ للمتلصِّص، حتَّى إذا أخذتُه لم أفلِتْه! عدتُ إلى الفراش. بعد بحثٍ قصيرٍ، وتصفُّحٍ لأوراقها، وجدتُ سبع عشرة ورقةً مطويَّةً، ليس صعبًا تخمينُ كنه ما بها. أجل إنَّها الروسيَّات.

***

– أُطْعُنِي بِالنَّهْدِ وَجْهِي
قَشِّرِي جِلْدِي وَذُوقِي
طَعْمَ أَعْصَابِي
لَذِيذٌ؟
– طَعْمُهَا الحِرِّيفُ يُغْرِينِي
بِأَنْ أَطْعُنَ أَعْمَق!

(مِنَ الرُّوسيَّات)

❊ ❊ ❊

بَعْدَ التَّرَاشُقِ بِالقُبَلْ
وَتَمَايُلِ الأَغْصَانِ وَالوَرْدِ الـمُخَضَّلِ بِالعَسَلْ
قَدَّتْ مَلَابِسَهَا الجُمَلْ
وَتَسَاقَطَتْ - تَتْرَى - الـمَفَاتِنُ
عَرَّتِ الجَسَدَ الـمُسَجَّى
فَوْقَ مَهْدِ الرَّغْبَةِ الحَمْرَاءِ
مِنْ ثَوْبِ الـمَلَلْ
لَا ثَوْبَ فَوْقِي مِنْ خَجَلْ
خَجَلِي تَهَرَّأَ مِنْ سِنِين
دَنَتِ الشِّفَاهُ مِنَ الغُصُون
وَرَمَتْ بَوَارِقَهَا عَلَى النَّهْدَيْنِ وَالخَصْرِ العُيُون
وَجَرَى النَّدَى
وَبِهِ ارْتَوَتْ
أَوْرَاقُنَا
ثُمَّ احْتَوَتْ

آهَاتِنَا
ثُمَّ ابْتَنَتْ بِجَزِيرَةِ الشَّبَقِ البَعِيدَةِ مَعْبَدًا
حَتَّى نُقِيمَ بِهِ صَلَاةَ اللمْسِ
لَا كُهَّانَ... لَا أَصْنَامَ
وَحْدِي... وَحْدَنَا
يَا نَارَنَا الحَمْرَاءَ
هُزِّي مَهْدَنَا

(من الروسيات)

***

بعدَ جولةٍ موجزةٍ في (الروسيات)، ألَـمَّتْ ببعض قصائد الفصحى (*القصايد العامِّيَّة في الآخر*)، رفعتُ رأسي من الأوراق، وجعلتُ أحدِّق في باب الغرفة العسلي اللون (كثير الخدوش) المقابل لي. هل كنتُ حقًّا كاتبَ هذه القصائد. ومِمَّ؟ من لقاءٍ واحدٍ (بل شِبه لقاءٍ!) لم يتكرَّر! ياه! إنه (الحب من أول نظرة) كما يجبُ أن يكون! لم أصدِّق قط قولَ (ابن حزم

الأندلسي) الذي نصُّه: "وإني لأطيلُ العجبَ مِنْ كلِّ مَنْ يدَّعي أنه يُحِبُّ من نظرةٍ واحدةٍ، ولا أكادُ أصدِّقُه، ولا أجعلُ حُبَّه إلَّا ضَرْبًا من الشَّهْوة".

الحبُّ لا يكون إلَّا من نظرةٍ واحدةٍ، تصرعُ الـمُحِبَّ، وتبعثُه في نفس اللحظة، مكلَّلًا بخيالات الهوى الوردية.

انشغالي طَوال العامين الماضيين بمحاولة إثباتِ ذاتي، شغلني تمامًا عن الاهتمام بهذه القصائد، وبدورِها العظيم في تخفيف عِبء الرسوب عليَّ، ودفع اكتئابي عنِّي قدرَ الإمكان. رُوح هذه القصائد محفورة في قلبي (هذا لا يعني بالضرورة أن قلبي مِن حجر!). لكنْ... مضى وقتٌ طويل. ياه يا يمنى! من أنبتَكِ في حياتي؟ من أمطرَكِ اليومَ عليَّ؟ أي صدفةٍ تلك التي حبَّبتْ إليَّ الأدب، ويسَّرت عليَّ عِلْم العَروض، وجعلتني ألتحق بكلية الصيدلة، وأعلمتني بموعد الندوة (الساعة الثانية بعد ظهر الاثنين 9 مايو 2011)، وشجَّعتني على تدوين اسمي في كشف المشاركين بقصائدهم، وجعلتني أختار من القاعة مقعدًا متطرِّفًا يقع في صفٍّ متأخِّر، يسَّر لي مراقبة وجهكِ

الروسي طوال الندوة؟ أي صدفةٍ تلك؟ أغمضتُ عينيَّ. أطبقتُ جفنيَّ بقوةٍ حتَّى بدأت القناديل الفسفورية تتراقص في ظلمة الإغماض. استعدتُ (*الصُّداع بدأ يخِفّ*) الإبصارَ. أودُّ أنْ أنسى. أنسى. أنسى. ألستُ معتادًا على الاستماع إلى أم كلثوم يوميًّا في مِثل هذا الوقت قبل غسيل أسناني والنوم؟ سأفجِّر الآن ينبوعَ اللذة العلوية، لعلِّي أنسى. موبايلي السامسونج ذو الشاشة المنزلقة، فيه جميع أغانيها. التقطتُه من على المكتب هو والسماعات. أيوه افتكرت. قبل أم كلثوم سأصغي إلى تسجيلات المجنون طارق التي أعطانيها أول من أمس. تجربة عجيبة قام بها، ولم يشأ أن يُطلع عليها أحدًا قبلي. و... إيه ده؟ شاشة الموبايل تُنبئ بورود رسالةٍ من طارق! فتحتها. قرأت ما بها. كويِّس قوي. عرف يدبَّر لي المعاد. بكرة الساعة عشرة ونص. كويِّس جدًّا. خرجتُ من قائمةِ الرسائل مبتهجًا – إلى حدٍّ ما – بما في الرسالة، وانتقلت إلى قائمة الموسيقى، لأصغي (برَوَقان) إلى التسجيل الأول: آياتٌ من سورة هود على مقام الصبا، بمصاحبة العود!

***

(الحياة مجموعةٌ من الصُّدَفِ المقصودةِ أو غيرِ المقصودة، ولكن... من ذا الذي - حقًّا - بيدِه (القَصد)؟! إن وجودي حيًّا صُدفة. نشأتي كإنسانٍ لا حشرةٍ صُدفة. كَوْني ذكرًا لا أنثى صُدفة. لماذا كنتُ نفسي ولم أكُنْ أختي؟! وهل إذا كان الحيوانُ المنويُّ (الذي رأسُه هو نِصْف خليـَّتي الأولى) ضلَّ دربَ البويضة، أو مات في رحلتِه داخل وهاد الرحم وتلالِه من جوعٍ أو ظمأ، كُنتُ سأحيا؟ أم إن وجودي مرهونٌ بتلك القوى الخفيَّة التي سدَّدَتْ مسعاه؟!).

(كروان بثلاثة أجنحة - ص 57)

5

في باكر الصَّباح، صحوتُ كما اعتدتُ بنفسٍ، تُحاكي تلك التي تنير بالخارج، وتتسلَّلُ على استحياءٍ من خصاص الشباك الذي عن يساري، وفي أذنيَّ يتردَّدُ صوتُ طارق الذي أصغيتُ إليه أمسِ يُغنِّي مع العود... (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُون). لصقت هذه الآية بأذني، دون غيرِها، وكذلك أنغام العود السحريَّة التي رافقتها. يا بن الجنية يا طارق!

نظرتُ إلى المنبِّه المجاور للكمبيوتر. السابعة تمامًا كما حفظَتْ ساعتي البيولوجية. أزحتُ عن جسدي الغِطاء (المكوَّن من بطانيَّة فوقها كوفرتة إمعانًا في التَّدفئة!). فارقتُ الفراش. وضعتُ قدميَّ في الشبشب. التقطتُ من على الكرسي (غريبة. هوَّ انا ما حلمتش امبارح بحاجة خالص؟!) المنشفةَ الورديةَ الفاتحةَ (الكبيرة جدًّا)، ثم خرجتُ من الغرفة قاصدًا إلى الحمَّام.

بالصالة الضيِّقة خافتة الإضاءة، لمحتُ أمِّي جالسةً على أحد مَقاعد المنضدة، والكآبة تتدفَّق من وجهها المتغضِّن الغامقة سمرته كوجهي، وتسيل على جسدِها المترهِّل السمين الـمُحاط بعباءةٍ قرمزيَّةٍ غريبةِ النقوش. ألقيتُ عليها تحيَّةَ الصباح (مراعاةً لحقِّ الجيرَة!)، وسألتُها بصوتٍ أغلظَه النَّوم:

– شكلِك ليه مش مبسوط؟ فيه مصيبة ولَّا إيه؟

أجابت بصوتِها الـمَبحوح هازَّةً رأسَها:

– اللي يسمعك امبارح يا جابر لازم يقلق.

إيه دا بقى؟ هيَّ هتبدأ تأنِّبني بقى زيّ كلّ يوم. بسّ... بسّ هيّ سمعتني إمتى وازَّاي أصلًا؟!

– أنا امبارح جيت بالليل بعد الشغل، وما اظنش انّ احنا اتكلِّمنا علشان كنتم نايمين. ما اتكلمناش امبارح خالص!

– يا جابر أنا قلقانة عليك. إمبارح صوتك وانتَ نايم كان عالي، وكنت بتبرطم بحاجات غريبة. إِشِي (حَلَبة)، وإِشِي (مش أنا مش أنا)، وإِشِي (كلب). إيه يا ابني بسّ؟ إوعَى تكون بتشرب حاجة!

ألقى قولُها بذورَ الريب في صدري، فأنبتت ضَيْقًا لا يُحتمل.

- بابرطم؟!

هزَّت رأسَها مرَّةً أخرى في أسف، وقالت:

- يا ابني مش قلت لك تبقى تصلِّي قبل ما تنام.

انفجرتْ ثمارُ الضيق، ولطخت وجهي بحمرةِ الغضب!

- ما تجيبيليش السِّيرة دي لا اسيب لِك البيت وامشي.

أطرقت لحظةً وقالت:

- تكشيرتك زيّ تكشيرة ابوك بالظبط يا جابر. وانت فيك منـ...

قاطعتُها صائحًا:

- باقول لك بطَّلي الكلام اللي يحرق الأعصاب ده.

تمتمت مُطرقةً:

- يا ابني عيب كدا.

- إيه اللي عيب؟ إنتِ مش فاكرة الحيوان ده عمل فيكِ إيه؟ ما بتبصّيش في المرايا؟ ما بتشوفيش الحَرْق اللي عمله فْ قورتك

لـمَّا طفى فيها سيجارة الحشيش قبل ما يروح في داهية بأسبوع.

– والله أبوك كان بيحبَّك يا جابر.

– اللي ما يعرفش يحبّ نَفسه استحالة يعرف يحبّ حدّ تاني.

وتركتُها ثائرًا، وذهبتُ إلى الحمَّام. كلّ يوم من الخرا ده. تعب أعصاب ع الصبح، وزعيق. عيشة لا تُطاق. أنا بقيت (هوَّ اصفر قوي كدا ليه النهاردا؟!) على شعرة واسيب البيت الزبالة ده. وان شا الله أقعد في خرابة. جذبت السيفون بعد أن أنهيتُ تبوُّلي الصباحي (أصفر قوي!)، الذي كان يحلو للكائن المدعو (أبي) أن يُشبِّه به البنات، في قوله الذي نصُّه: (البنت زيّ شخِّة الصُّبح. أول واحد يقابلك الزقهاله). وبهذا المنطق (لزق) أختي الكبرى سحر بزوجِها (البضين). لكنَّه مات قبل أن يأتيَه من يطلب يدَ الشَّخَّة الثانية!

غسلتُ وجهي. بدأتُ أحلق لحيتي (التي لم أقربها منذ عشرة أيَّام تقريبًا) أمام مرآة الحمَّام، حتَّى بدأتْ تنسفر تدريجيًّا عن أديم وجهي الأسمر الغامق (في اخضرارٍ طفيفٍ من أثر

الحلاقة)، وأخاديد خديَّ التي خلَّفتها حرابُ حبِّ الشباب الـمُجرِمة (أسوأ شيء في وجهي). أنهيتُ الحلاقة، ثم هربتُ بعينيَّ من صفحة المرآة، لكيلا تكشف إطالةُ التأمُّلِ عن عيوبٍ أخرى (كصلعتي الرَّضيعةِ مَثَلًا؛ ثاني أسوأ شيء في وجهي)!

استحممتُ بصابونة ديتول زرقاء، وربع كوز لوف، وكثيرٍ من المياه السَّاخنة المنهمرة من مآقي الدوش، عازفةً أعذبَ (نوكترن)! غسلتُ أسناني. خرجتُ من الحمَّام إلى غرفتي محوِّطًا جسدي النحيل بالمنشفة العملاقة (كويِّس انَّها سابت الصَّالة. أنا مش ناقص!). نظرتُ في طريقي إلى النتيجة المعلَّقة بجوار باب الشقة. الخميس 26 ديسمبر (ممكن والله ادِّيهالها النَّهاردا. إيه المشكلة يعني؟!). دلفت إلى الغرفة. ارتديتُ بنطالي الأسود (بعد الملابس الداخلية). القميص الكحلي. الجاكت الأسود المبطَّن بالـمُخْمَل. ثياب قديمة لكنها مريحة وهذا هو المراد. بدأت أعمِّر جيبيَّ. المحفظة البرتقالية (فحصتُها جيِّدًا لأتأكَّد من أنَّ بها مبلغَ الإعانة. النهاردا 26 والسنة الجديدة قرَّبت). أضفتُ إلى مائةِ جنيهٍ داخل المحفظة، مائةً أخرى (من مخبأ

مدَّخراتي)، ليتم المبلغ (غلفته بورقةٍ، اقتطعتها من دفترٍ خالٍ كان فوق كرتونة الكتب)، ثم وضعتُ المحفظة (وبها الإعانة الـمُغلَّفة ونحو تسعين جنيهًا) في جيبي الأيسر، وسلسلة المفاتيح، والموبايل السامسونج. لأ. لأ. لأ. أفّ. قفز من يدي كأنَّه حيٌّ! وقع على الأرض، وسمعتُ صوت (الكراش). انحنيتُ لأتفقَّد ما صار إليه. الشاشة مشروخة بالطول! ضغطتُ بعض الأزرار. لم يزل يعمل. أفّ. سأضطر إلى استخدامه وهو على هذه الحالة الـمُزرية، حتَّى يتيسَّر لي تصليحُه. كويِّس إنه مش باللمس! وضعتُه في جيبي الأيمن. أنا أتشاءم من الأشياء المكسورة. أرجو أن يمرَّ هذا اليوم على خير. وضعتُ في جيب القميص قلمي الروترنج الذي لا أكتب بسواه. وضعتُ في حقيبتي روايتيَّ، ودفترًا صغيرًا لتدوين الأفكار العابرة. رششتُ طبقة من بودرة الأطفال على ظهر الأجندة التي فيها أوراق الروسيات، ثم أعدتُها إلى مكانها في الدرج الأول، برفقة دفتر يومياتي الجديد (الذي اشتريته أول من أمسِ بعد امتلاء السابق بالذكريات). ارتديتُ ساعتي

معدِنية السوار. حذائي. وضعت علبة المناديل في جيبي. حاولت قدرَ استطاعتي مواراة صلعتي (الطَّمُوح!) بالـمُشط الأسود الصغير. لا فائدة! هل ازداد شعري الخفيف عنها انحسارًا أم إنني أتخيَّل؟! خرجتُ أخيرًا من الغرفة. المرشدة الكبيرة لا أثر لها، والصغيرة الآن في المدرسة. عدتُ مرَّةً أخرى إلى الغرفة، لأشرب ما تبقى من زجاجة المياه (أنا ما شربتش كويِّس امبارح). غادرتُ الشقة (الساعة تمانية بالظَّبط)، وأنا أتساءل بجدِّيَّة:

– هوَّ انا صحيح كنت بابرطم امبارح وانا نايم؟!

6

في سابق الأيام، كنتُ أجلس من بعد صحوي في هذا الوقت، أمام شاشة الكمبيوتر، أعزف على مفاتيح الكي بورد، مجتهدًا في بناء روايتي الثالثة، وأظل ثملًا بالكلمات المعتصَرة من خلاياي المعتَّقة، حتَّى تحين الساعة الثانية، فأتغدَّى (طبعًا مش مع المرشدتين) ببعض الساندوتشات التي أشتريها من مطعم (أولاد خفاجة) الصغير المجاور للبيت، وأذهب إلى محل الشيخ ياسر لأنتظر رفيقي في العمل على التاكسي (حسام الجعَّار) صاحب الوردية الصباحية، لأبدأ ورديتي في تمام الثالثة.

اليوم لديَّ موعِدٌ، بعث إليَّ طارق أمسِ رسالةً بها تفاصيله. كان قد أعطى روايتيَّ إلى أستاذٍ في النَّقْدِ الأدبي، اسمه حسن أبو طالب، قبل تسعة أيام. كان قد تعرَّف عليه بأحد الملتقيات الموسيقية التي هو شغوفٌ بها. حدَّثه عني، وطلب منه أنْ يُفسح لي من وقته ساعةً لكي نتناقش بشأن الروايتين، بحيث يكون

هذا النقاشُ إرهاصًا لندوةٍ (يا ريت!) يعقدها للتحدُّث عن إحداهما، بأيِّ ملتقًى أدبيٍّ من تلك التي هو على صلةٍ بها. اللقاء (وَفقَ الرسالة) في العاشرة والنصف داخل مكتبه بكلية الآداب.

خرجتُ اليومَ مبكِّرًا لأمرَّ بزوجة عمِّي، لكي أحدِّثَها بشأن الدَّين واجب السداد. هي تستيقظ فجرًا لتُصلِّي. لاحظتُ ذلك حين كنتُ مقيمًا عندهم طوالَ أسبوعَي انتهاء أبي. بين منزلي ومنزلهم شارعان. سأذهب إليها، وأتَّفق معها على طريقةٍ لتسديد مبلغ الدَّيْن على أقساط، ثمَّ أذهب إلى مهبط الوحي، الذي لا يحلو لي التفكير إلا فيه، قبل أن ألحق بموعدي. أين مهبط وحيي؟ ستعرف حين أصل إليه. مستعجل على إيه؟!

حششتُ الخطى في الشارع الضيِّق المتوغِّل في أعماق (مصطفى كامل – فليمنج) حيث أقيم. اخترقتُ حقل البنايات الخالي من أيِّ لون أخضر يُبهـ... لا والله ثمة لون أخضر! بيني وبينه نحو عشرة أمتار، لكنه ليس لشجرة، ولا لنبتةٍ، ولا حتَّى لعود جرجير! كان لكتلةٍ بشريةٍ من اللحم الأبيض الطري،

تتهادى في ثيابٍ خضراءَ ضيِّقةٍ، تهتزُّ من تحتها أعطافُها، وتنشر تياراتٍ من الرَّغبة المحمومة، في الجو من حولها، فتنحسر عن الرَّانين إليها والمارِّين بها برودةُ هواء الصباح. الثيابُ خُضر، ومثلها سِتر الشعر، والأيشادو الذي صُبِغ به الجفنان.

تجاوزتُ الخضراء بمقدِّمات ورم (حميد) تحت سروالي الداخلي! ومررتُ بعدها بثلاثة صناديق قمامة، موضوعة على الرصيف الأيمن الضيق، مترعة بالأكياس السوداء شبه المغلقة، التي هي جنَّة مَن عَمِلَ من القطط صالحًا وكدَّ في السَّعي، وتحرِّي أسباب الرِّزق! بعد الجنَّة بإحدى عشرة خطوة، انحرفتُ يسارًا، ودلفتُ من بوابة البناية رقم 17 التي فيها منزل عمِّي، وأنا أتمنَّى أن تمضي الأمور على خير حال.

7

- عيب كدا يا جابر.

حوَّلتُ عنها نظري، إلى البساط الدائري قاني الحُمرة الذي يتوسَّط غرفة الضيوف، والمرسومة عليه أنواع من النباتات والزهور غليظة لا ذوق فيها، تشبه الأَصَلة! هوَّ انا كلّ ما اقول حاجة لحدّ النهاردة يقول لي عيب ولَّا إيه؟!

- الحقّ حقّ يا مرات عمِّي.

ابتسمتْ وهي تعدل بيدها اليسرى المعروقة (التي ببنصرها دبلة الزواج!) طرحتَها الزرقاء، فتكوَّر خدَّاها السميكان وارتفعا صوب عينيها، وقالت:

- بَرْضَك عيب يا جابر. الكلام ده يتقال للغُرْب. إحنا أهل. وعمَّك الله يرحمه كان بيعتبرك بالظبط زيّ رباب.

تذكرتُ رباب. أظنُّ أنها الآن في كليتها (كليَّة التجارة التي هي في الفرقة الثالثة منها)، لأنَّ أمها هي التي فتحتْ لي الباب،

ولم ألاحظ حتى الآن أيَّ صوتٍ أو حركةٍ في البيت. كويِّس. أنا لا أتفاءلُ بلقائها أبدًا.

– يا حاجَّة هيام. أنا مش باحبّ يكون بيني وبين أيّ حدّ فلوس.

تغيَّر وجهُها، فتجلَّى قُبحُ خالِها الأسود الكبير البارز الـمُجاور لأنفِها، والذي لدى رباب مثله بين ثدييْها الهائلين (يا ريتني ما شفتها عريانة!). وقالت لي:

– يا جابر ما تزعَّلنيش. إنتَ عمرك حسِّيت انّ فيه بينك وبين أبوك فلوس؟

الأول تقول لي عيب، وبعدين تجيب لي سيرة الجدع ده! قلتُ لها متمالكًا أعصابي:

– أنا عن نفسي، شايف انّ الواحد المفروض ما يعتمدش على أهله إلَّا لحدّ ما يبقى قادر يعتمد على نفسه، وبعد كدا عيب قوي يبقى عالة على حدّ.

هزَّت رأسَها باستحسان، وقالت:

– ما شاء الله عليك! عمَّك الله يرحمه كان طول عمره معجب بدماغك.

واستطردت قائلة بطريقتِها (المكشوفة قوي):

– وكمان ما تقلقش. لو انت مُصِرّ قوي على السداد، اعتبر إن الفلوس وصلت. مش كل جوازة بيكون فيها مهر؟

تباطأتْ أنفاسي. أحَّى مش عَ المكشوف كدا بقى! هيَّ توريطة ولَّا إيه؟ وكمان هيَّ بنتها رخيصة قوي للدرجة دي؟! ونظرتُ إلى جسدِها السمين، الذي يكاد ينتفشُ شبقًا بأداء بعض أعضائه (العقل واللسان)، وظيفةَ الحفاظِ على النَّسْل! هل رباب أيضًا (شَخّة صُبْح)؟!

ما كان عندي صَبْرٌ لاستكمال النقاش غير الـمُجدي، فاستأذنتُ منها، فقالتْ لي وهي تنهض من الأريكة بصعوبة:

– يا جابر استنَّى. هوَّ احنا لحقنا نعمل معاك الواجب؟

رددتُ بالكليشيه الذي يُقال في مثل هذا الموقف:

– مرَّة تانية انْ شاء الله.

وخَرَجْتُ من الشقة، أتساءل في نفسي عن سرِّ إشعاعِ وجهِها فرحًا، عندما خَرَجَتْ من حلقي الهاء!

***

(حين عارضَ الملائكةُ خَلْقَ الله للبشر، وقالوا له: إن الإنسانَ سيسفِكُ الدِّماء، ويرفعُ درجةَ حرارةِ كوكبِ الأرض، ويتسبَّبُ في انقراض ملايين المخلوقات؛ لم يُلفِّقْ لهم قضيَّةَ إرهابٍ، ولا حاكمَهم بتهمةِ ازدراءِ الذَّاتِ الإلـٰهيَّة! فقط نظر إليهم ببرود، وقال: إنِّي أعلمُ ما لا تعلَمون. ولقد عَلِمْتُ أمسِ ما عَلِمَه الله، وأدركتُ حكمةَ خلقِ كائنٍ سفَّاكٍ للدِّماء، لا يتورَّعُ عن تدميرِ كُلِّ شيءٍ. إن الله ضاق ذَرْعًا بكوكبِ الأرض، فسلَّطَ عليه البشرَ! وفي الواقع، لم يكن كوكب الأرض في الأصل إلا مجرد بروقة، لخَلْقِ كائناتٍ أفضل، في كونٍ جديدٍ!).

(كروان بثلاثة أجنحة – ص 93)

8

مررتُ بجنَّةٍ أخرى في طريقي نحو محطة ترام بُكْلَة (تحريف بولكلي). مَنْ بولكلي؟ يُقال إنه من مؤسِّسي مجلس إدارة شركة ترام الرمل إبَّان الاحتلال الإنجليزي. ويُقال إنَّ بُكْلَة تحريف لكلمة نيكوبوليس (اسم المنطقة في العصر البطلمي، وهو يعني مدينة النَّصر، علشان دماغك الوسخة ما تروحش لبعيد!). كانتْ قطط هذه الجنَّة أسمن، وتبدو على وجوهها (المشمشيَّة والرَّمادِيَّة والبُنِّيَّة والسَّوداء) أماراتُ الرَّخاءِ والنَّغنغة! اقتربتُ من مكان جلوس أم رياض. كانت مستقرَّةً على الرصيف الأيمن، فوق كرتونةِ شيبسي مفرودة، وعلى حِجرها كيس مُترع بعلب مناديل جيب. ألقيتُ عليها السلام، فأحسستُ ابتسامتَها تزحف على ثغرِها المنقَّب، وتتكاثف في عينيها الزرقاوين اللتين لا يُظهر نقابُها من وجهِهَا غيرَهما. ردَّت السلام بصوتِها العميق. سألتُها عن حالِها، وعن حال أمِّها (الصَّمَّاء)، فأجابت بالكلام الـمُعتاد. لَمْ يمتدَّ الحوارُ كثيرًا. أعطيتُها الإعانةَ الشهريَّةَ

المغلَّفةَ بالورقة البيضاء، مصحوبةً بـ (كلّ سنة وانتِ طيِّبة، وربِّنا يعينِك)، ثمَّ رحلتُ عنها لأكمل طريقي.

ما لا يعرفه أحدٌ (إلَّا طارق)، هو أن أم رياض هي الأنثى الأولى (والوحيدة) التي كشفتْ لي سرَّها الـمَصون (المختون!) وسمحتْ لي أنْ أتفحَّصه، وأنْ ألـمُسَه، وأن أداعِبَه بنفخاتٍ حاميةٍ من رئتيَّ (تُرى كيف كان شعورُها؟!). لَقيتُها في الأسبوع الثاني من أسبوعَي انتهاء أبي. يوم الـ... تَلات. أجل يوم الثلاثاء. بعد تعرُّفي على طارق بيومين في ندوةٍ للشاعر عبد الوهاب حفني بأحد الأماكن الثقافية حديثة النشوء. كنتُ في شارع السلطان حسين، وقتَ العشاء. لا تتساءل عن كيفيَّة وجودي في الطريق بذلك الوقت، برغم أنَّ ورديَّتي مسائية. لم أكن قد بدأتُ العمل على التاكسي أصلًا، ولا أصدرتُ حتَّى رخصة قيادة. ركِّز معايَ كدا. كنتُ أتسكعُ مُحاولًا نسيان الضغط العصبي الشنيع الذي أتعرَّض له يوميًّا، وخاصة ذلك اليوم (في موعد الإفطار، اجتمعت مع عمِّي وزوجته حول المائدة، وكانتْ رباب لا تزال بغرفتها. ناداها عمِّي حين علا

صوتُ أذان المغرب فلم تُجِب، فأمرني بأنْ أذهبَ إليها، وأُخبرَها أن الإفطار جاهز. تركتُ مقعدي، وقصدتُ إلى غرفتها، التي يفصل بينها وبين الصالة (التي تحتوي المائدة) ممرٌّ طويلٌ، تقع في آخره بجانبِ الحَمَّام. كانت الغرفة موصَدة، فطرقتُ بابها. لا رَدّ. أوجستُ خِيفةً، وظننتُها أصيبتْ بإغماءةٍ من تلك التي تفاجئها في أغرب الأوقات. تردَّدتُ قليلًا قبل أنْ أفتح الباب لخشيتي (قديمة المنشأ) ممَّا تُسفِر عنه الأبوابُ الـمُغلقة، غير أنِّي استجبتُ أخيرًا لداعي الريبة والفضول، وفتحتُ الباب و... ليتني ما فتحتُه. كانتْ رباب واقفةً بإزائي عاريةَ الصَّدر، بجوار فراشِها ذي الـمُلاءة الصَّفراء، الذي فوقه عباءتها المنزليَّة الزرقاء قصيرة الأكمام، وبلوزة ورديَّة لعلَّها كانتْ تُجرِّب ارتداءَها كعادة الفتيات. كان نهداها عريضَين بارزَين أسطوانيين كحرفَيْ U عملاقين اتصلت بمنحنى كلٍّ منهما Full stop، وبينهما ظلٌّ هادئ، ينتأ منه خالٌ أسودُ قبيح، يشبه حلمتَيها الكبيرتين، المحاطتين بلعوتين لونهما بنيٌّ داكنٌ. كانت استجابتُها (واستجابتي في الواقع!) لذلك الموقفِ بطيئةً.

حدَّقتْ في وجهي لثانيةٍ، قبل أن ترفع ذراعيها لتغطِّي بكفيها الصغيرتين كِيسَي الدُّهون المثيرين، فتكوَّرا كرغيفَيْ كايزر! احمرَّ وجهي (وأعضاء أخرى)، وأغلقتُ البابَ سريعًا، وعُدتُ بخُطًى مهرولةٍ إلى الصالة، قبل أنْ يُبصِر عمِّي أو زوجتُه شيئًا غريبًا في جسمي. وبعد لحظاتٍ، جاءت رباب في عباءتها الزرقاء. جلستْ بمقعدها، ولم ترفعْ عينيها عن طبقِها طوال الإفطار).

التسكُّع يساعد على النِّسيان، وما كان أحوجَني في ذلك اليوم إلى التغلُّب على رغبة إنهاء وجودي الـمُلِحَّة! التجوُّل في السلطان حسين والنبي دانيال كفيلٌ بأن يُنسِّيني اسمي. كانتْ حديقة الشلالات عن يميني، حين استوقفتني فتاةٌ سُمرتُها رائقة، ترتدي عباءةً من القطيفة، وإيشاربًا أحمر. سألتني:

– لو سمحت يا بيه. ما تعرفش ازَّاي اروح سيدي جابر؟

أجبتُ محاولًا التخلُّص منها:

– لا ما اعرفش.

قالت:

- طيب معلش ممكن أطلب من حضرتك طلب؟

- ...

- أنا جايَّة من البحيرة، وفلوسي ضاعت، ممكن جنيه بسّ عشان اعرف اروح سيدي جابر.

استعجبتُ من كلامِها غير المنطقي، وغير المتَّسق، وقبل أن أنبس بحرف، وجدتُها تضيِّق عينيها الزَّرقاوين، وتهتف في بؤس:

- أنا خدَّامة تحت رجليك. أيّ حاجة تعوزها أنا تحت أمرك. أنا خدَّامة تحت رجليك.

هممتُ بأنْ أنصرفَ عنها، غيرَ أنَّني (*صوتها العميق ساحِر!*) ظللتُ أمامَها، مستشعرًا بوادرَ مُغامرةٍ، وقلت لها:

- أيّ حاجة؟

فأجابت بانكسار:

- أيّ حاجة يا بيه.

وهنا ألقى عليَّ شيطاني فكرةً مجنونة، لمع فيها صدى قول طارق لي (بعدَ أنْ صرَّحتُ له أثناء حواري معه عَقِب ندوة الشاعر عبد الوهاب حفني بخوفي من نشر شيءٍ يطعُن في عقائد بعض الناس). ربَّت شعره المرجَّل إلى اليمين، وقال: ما تخافش من حاجة. واعمل دايمًا أوِّل حاجة تيجي على بالك. عمرك ما هتتعب نفسيًّا.

نطق لساني بالفكرة المجنونة (أوّل حاجة فعلًا خطرت على بالي بعد إجابتها المنكسرة).

- ينفع تنضَّفي لي شقتي فْ سيدي بشر؟

- تحت أمرك يا بيه.

يا سلام!

في سيدي بشر سماسرة، تخفي نفوسُهُم بذورَ قوَّادين محترفين، يؤجِّر الواحد منهم بعض الشقق لليالٍ منفردةٍ، مقابل مائة جنيه في الليلة. عثرتُ على أحدِهِم، حين اصطحبتُ أحدَ أصدقائي المغتربين في السنة الأولى لي في كلية الصيدلة إلى هناك

ليبحثَ عن شقةٍ، ليقيم فيها هو وثلاثة من أصحابه. أتى ونحن نتناقش مع السمسار شابٌّ، وسأله عن شقَّةٍ يستأجرُها لليلةٍ، فرحَّب به، وطلب منه أن ينتظر حتَّى ينهي حواره معنا، ولـمَّا انتهينا، لمحتُ فتاةً كانت تتلصَّصُ من بعيدٍ على ما يدور!

حشتُ الخطى مع قطعة الحلوى المغلَّفة بالقطيفة نحو طريق الكورنيش، لنستقلَّ مواصلةً صوب سيدي بشر. في الطريق عرفتُ أنَّ اسمها أم رياض، ولم أحاول التطفُّل على حياتِها الخاصَّة، ولا كنتُ أريد أن أعرفَ أيَّ شيءٍ عنها أصلًا، ولا أن تعرفَ أيَّ شيءٍ عنِّي في ذلك الوقت. وصلنا. بحثتُ قليلًا حتَّى وجدتُ بغيتي. اتَّفقتُ مع السمسار (القوَّاد)، بعد أنْ أوصيتُ أم رياض بأن تظلَّ بعيدةً تراقبنا، لكيلا يكون الفعل مفضوحًا (زيادة عن اللزوم)! مجتمعنا الفاضل لا يحترم الـمُجَاهِر بالمعصية، لكنه لا يمانع أن (يخرب) الإنسان الدنيا في الخفاء!

اصطحبني إلى البناية التي فيها الشقة المستأجَرة. أعطاني المفتاح، وانصرف بعد أنْ نقدتُه أجرة الليلة (كنتُ في ذلك الوقت أضع مدَّخراتي في محفظتي، قبل أنْ يثبت لي أنَّ هذا أكبر

مهدِّد للادِّخار، وأنَّ المكان الجديد (الذي لن أصرِّح به) أفضل بكثير من المحفظة).

انتظرتُ قليلًا في مدخل البناية حتَّى رأيتُ أم رياض تدلف إليها من بوابتها المعلَّق عليها فانوس كبير من الصفيح، بمشيتها الضعيفة الذليلة. صعدنا معًا إلى الطابق الرابع. في الشقة، سألتني عن أدوات المسح، فأعطيتُها خمسين جنيهًا!

- إحنا فْ رمضان يا بيه.

نبرتُها أوحتْ إليَّ بأنَّ الغرضَ من جملتِها، ليس بيانَ أنَّ رمضان هو شهر الفضيلة، بل أنَّ رمضان (شهر التوحُّش في الاستهلاك) يستوجب رفع الأجر!

ملعون أبو العبثيَّة.

لا أذكرُ بم أجبتُها، لكنَّها انصاعت في النهاية، وبدأتْ تفعل ما اعتادتْ فعلَه، ولم يكن عندي قبل ذلك اليوم خبرةٌ بشأنه، ولا توهَّمتُ أنَّ لديَّ شجاعةً أو عزمًا يُمكنني من إتمامِه! لَعَلِّي كنتُ مدفوعًا بالفوران الذي حيَّتْ به شراييني عُريَ رباب

وقتَ الإفطار. لا أدري! حين هدأنا، أحسستُ نحوَها بأُلْفَةِ التَّقارُب. ما الفرق بين الزواج وما فعلناه؟! سألتُها عن ذلك، فأجابتْ بهدوء، بقولها إنَّ الزَّواج في منطقة (الحَجَر) ليس إلَّا (نومع السّرير). لا اهتمام بأولاد، ولا أيّ شيء.

هدوؤها لم يكنْ مصطنعًا. هي في ظنِّي أهدأ عاهرةٍ في هذا الكوكب (وهل عَرَفتُ سِواها؟!). كأنَّها خرجتْ من عالم نجيب محفوظ الذي يرتدي كلُّ شخصٍ فيه قميصَ الفلسفة، حتَّى البغايا!

سألتُها عن رياض، فقالت – بعد تردُّدٍ – أنه نتاج اغتصاب خالِها لها قبل أربعة أعوام! اندهشتُ! أي إنه ابنُ خالها، وابنُها في نفس الوقت! قالت إن فضيحة الاغتصاب انتشرت في منطقتها الشعبية، بعد حدوثِها بساعة. ثار أبوها، فقتل خالَها، وطلَّق أمَّها. قُبِض عليه، وحُكِم عليه بالسجن المؤبَّد. ألـمَّت بأمِّها أزمةٌ صحِّيَّةٌ، تعاطَتْ – لتتغلبَ عليها – مضادًّا حَيَويًّا قويًّا أشار به عليها صاحبُ صيدليةٍ قريبةٍ منهم، فأصابَها بالصَّمَم (لعلَّه مُضَادٌّ حَيَوِيٌّ من عائلة الأمينوجلايكوسَيْدات)!

انتظرت سُكَّرة (اسمها الأصلي)، حتَّى حدثت الولادة. لم تشأ أن تُجهَض خوفًا من عواقب هذا الفعل. بنت عمتها أجهضت نفسَها لتُثبت لزوجِها كراهيتَها له، ورغبتَها عن الاستمرار على ذمَّته، بسبب عُنفِه في الجماع، وتحرِّيه أوضاعًا جنسيَّةً شاذَّةً مقززةً حين تضطجعُ معه، فماتت وسط بركةٍ شنيعةٍ من الدماء. أهل (الحجر) نبذوا سكَّرة. لا أحد يُساعدها هي وأخويها الصغيرين. أقارب أمِّها صبُّوا عليها اللوم بدعوى أنها أغوت خالَها بعينيها الزرقاوين وجسدِها الفائر! لا إنصاف. اضطرَّت إلى أنْ تعرض نفسَها على المارَّة، بالطريقة التي عاينتُها (والتي عرفتُ فيما بعد أن كثيرًا من عاهرات الإسكندرية - ولاسيَّما اللواتي يعملن صباحًا - يعمدن إليها)، لكي يعطفوا عليها، أو يستعينوا بها في أيِّ عمل، بدايةً من تنظيف السلالم، حتَّى ما فعلتْه معي.

أحسستُ بالذنب بعد حكايتِها. لا أُنكِر أنني ندمتُ على ما فعلتُه، وأنَّ إنذارَ الفضيلة في ذهني بدأ يزداد صخبًا. أشرتُ عليها بأنْ تترك هذا السبيل، وأن تُحاول بيع علب مناديل

الجيب. ووعدتُها بإعانةٍ شهريَّة قدرها مائتا جنيه، إنْ هي نفَّذَتْ مشورتي. ليس كلُّ طالبي مواقعة البغايا أسوياء. مِن عبيد الشَّهوات، مَن لا يصل إلى اللذة إلا بإيذاء شريكته في الفراش. وبصراحةٍ، لم أشأ أن يُصيبَها مكروه. حَسْبُها ما حدث لها. وعرضتُ عليها أن تجلس على رصيفٍ في منطقة (مصطفى كامل – فليمنج) لتكون قريبةً منِّي، فأكون على مساعدتِها – متى احتاجتْ – قادرًا. (لعلَّ استجابتَها لعَرْضي صارت واضحةً الآن لخيالِك. أوَلَمْ أمُرَّ بها منذُ دقائق؟ الشيء الوحيد الذي غيَّرتْه من هيئتِها هو ارتداؤها النقاب).

تركنا الشقة معًا، وودَّعتُها قبل أنْ أعطي السمسار المفتاح، ونفسي تَوَّاقة إلى أن ألبِّي اقتراحَ عمِّي، فأعمل سائق تاكسي، لأستطيع أنْ أساعِد المسكينة سُكَّرة (ولأتفرَّغ قبلَ كلِّ شيءٍ للأدب).

***

كنتُ قد وصلتُ – بعد سيل الذكريات العنيف، الذي استفدتُ منه كثيرًا في روايتي (دموع الحجر) – إلى محطة بُكلة.

طفقتُ أنتظر قدوم الترام، جالسًا تحت أشعَّة الشمس (المعمَّصة) التي تُهَوِّم من حينٍ لآخر، على أريكةٍ حجريَّةٍ، نظَّفتْها أكفالُ الجالسين عليها من قبلي!

لم يَطُل انتظاري. سرعان ما اقترب الأفعوان الأزرق متمايلًا هادرًا، وتوقَّف محاذيًا لي.

نهضتُ من مكاني، وولجتُ من باب العربة الثالثة (الأخيرة) الخلفي، بعد أن راق من النازلين. كانتْ أريكةٌ واحدةٌ فقط من العربةِ خاليةً، في الصف الأيمن. قصدتُ إليها، وجلستُ بجانب النَّافذة، ووضعتُ حقيبتي على فَخِذَيَّ. كانَ على الأريكة التي أمامي شيخٌ وشاب لزج العينين. تجاهلتُهما، ولَّيتُ وجهي شطر النَّافذة، وأخذت أتأمَّل الوجودَ الذي بدأ يغيم. بعد إحدى عشرة محطَّة، أبلغ مُتأمَّلي... خَلوتي التي يحضُرني فيها الوحي... (مقابر الشاطبي الأثريَّة).

لماذا؟

سؤال غريب!

لأتأمَّل طبعًا.

❊ ❊ ❊

(الجنس هو الشَّرَكُ الذي تنصبه للبشرِ الحياةُ، فيعميهم وَهْجُ جمره الأحمر السَّاخن عن الوَيْلِ الذي يتوارى في منتهى دربِه، متربِّصًا بالسَّعادة).

(نافذة بلا كوخ – ص 83)

9

بعد ثلاث دقائق تقريبًا، بدأ الترام يتحرَّك متأوِّدًا، وأنا فيه منزوعُ الإرادة، أميلُ حيثُ يميلُ، وأضطربُ حين يضطربُ، وعيناي طوال المسافة القصيرة ما بين محطة بكلة ومحطة رشدي (التي سيحلُّ فيها بعد لحظات) لا تفارقان النافذة. تنتقلان من موضع إلى موضع، ومن وجه إلى وجه.

حين بلغنا محطة رشدي، تدفَّقتْ من الأبوابِ أعدادٌ غيرُ كثيرةٍ من الناس، ظلَّ جميعُهم - إلَّا واحدةً - وقوفًا، وحلَّت هذه الواحدةُ بجانبي. كانتْ فتاةً (أو ستّ كبيرة. هاعرف ازَّاي يعني؟!) منقَّبةً، عيناها سردابان، مدخلُهما بالكُحلِ رُسِم، وبأهدابٍ شديدةِ الانتصاب أحيط. جلست لِصقي، فلم يستطع قلبي كتمانَ الخفقانِ، حين ركن جانب فخِذِها اليمنى إلى جانب فخِذي اليسرى (هوَّ الواد اللي قصادي ده بيبصّ لي كدا ليه؟!). إيه ده؟! ما هذه اللدونة؟! كأنَّها من الإسفنج قُدَّتْ!

جرَّبتُ كثيرًا جلوسَ إناثٍ بجانبي في الترام، لكنَّني لم أحسَّ قطُّ هذا السكين الذي يقُطُّ الآن الرباطَ المقيَّدةَ به شهوتي؛ فقد كُنَّ يرتدين بناطيل من الجينز ضيِّقةً، وهذه البناطيل، وإن كانت تُفصِّل معالـمَ الجسدِ بدقَّة، إلا أنها تمنع اللدونة الأنثوية من الانسياب في الحيِّز الذي يحتويها، ودغدغة حواس من قد يكون القدرُ ألقى به في نطاقِ البضاضةِ من الذكور. أما النقاب الفضفاض العباءة (زيّ اللي لابساه اللي قاعدة جنبي)، أو الجيبة الواسعة، فلا أدلَّ على أثرِهما النفَّاذ في أصلبِ الأجسام، من هذه الشعلة التي توقَّدَتْ في كِياني، وبدأتْ تنفثُ الحممَ في شرايين نصفي السفلي. انكمشتُ في مكاني، وازددتُ من النافذة اقترابًا، عسى أن يُبرِّدني الهواء الذي بدأ يتسلَّلُ رويدًا، حين عاودَ الترام تحرُّكَه، فلم يُجدِ، ولا سيَّما أن اهتزازات الترام رجَّت كتلة الجيلي الـمُنَقَّبة، فوخزتني تيَّاراتُ الجُمُوح، ولم يعُد أمامي سِوى الحلِّ الأخير!

83×23... 3×3=9. 3×8=24. صفر. 2×3=6. 2×8=16. 249+1660=1909... 1909 هي سنة...

خبت الشعلةُ ثمَّ انطفأت، بعد أنْ شغلتُ عقلي بمسألةٍ حسابيَّةٍ، كعادتي حين تشتعلُ رغبتي، فأرجو إطفاءَها. تنفَّسْتُ الصُّعَدَاء، ولكن... ندمتُ على ما شغلتُ به فكري، لأُرَاوِدَ الشَّهوةَ الـمُراوِدةَ، لـمَّا توقَّف الترام في المحطة التالية (محمد محفوظ)، وقامت المنتقبة الشهيَّة، وسارت صوبَ الباب الأيمن الذي انفتح آلِيًّا، ونزلتْ منه. لقد كانت (محمد محفوظ) وجهتَها!

تأملتُها وهي تبتعد ماشيةً الخيزلى (لو مش عارف يعني إيه الخيزلى اسأل المتنبِّي!)، حتى هدر الترام من جديدٍ (*الواد ده بيبصّ لي كدا ليه؟!*)، وابتعد ببطءٍ عنها.

***

(وَنُودِيَ فِي النَّاسِ لَا تَعْبُدُوا الفَخِذَ البَضَّةَ الشَّهِيَّةَ فَتكُونُوا مِنَ الهَائِجِينَ).

(آيَةٌ من الوَحْي ألحَّتْ عليَّ في الترام!)

10

قبل محطة الشاطبي باثنتين، فاجأني الشابُّ (لزج النظرات) الذي كان جالسًا بإزائي، بسؤالٍ غريبٍ:

- حضرتك كاتب؟

انشرح صدري، وأنا أتأمَّل أنفَه الدُّهنيَّ اللامعَ، وحاجبيه الموصولين. معقول يكون واحد في كوكب الأرض قرا رواية من الاتنين اللي نشرتهم؟!

أجبتُه بابتسامةٍ أوسعَ من مهبلِ امرأةٍ أنجبتْ سبعة أطفال، وأنا أتذكَّر صورتي التي على الغلافِ الخلفيِّ مِنْ روايتيَّ:

- حضرتك قريت لي حاجة قبل كدا؟!

زوى ما بين حاجبيه، وقال هازًّا رأسه:

- لا والله. أنا شفتْ صورتك على ضهر رواية في محطّة الرمل.

سألتُه بجفاء:

- وما اشتريتهاش؟!

- بصراحة - وأكيد حضرتك صدرك يتَّسع للنقد - لـمَّا تصفحت الرواية الأسلوب ما شدّنيش قوي، وفيه كلمات ما فهمتهاش زي... حاجات كتير. مش متذكر بالظبط. يعني...

- ...

- أنا آسف.

لم أردَّ عليه؛ وأنقذَهُ من الإحراج، وأنقذَني، توقفُ الترام في المحطة التالية (التي كانت مقصِدَه). غادر الترام. فقدتْ عيناه لزوجتَهما. انساب من الباب كقطراتِ سحلب أفلتَها فَمُ طفلٍ. تريَّث الترام. انطلق. اهتزازٌ. تأرجُحٌ. ضَيْقٌ مضاعفٌ. صورة يمنى تطوف بخيالي من جديد كفراشةٍ أوجدَها العَدَم! إخفاق. سخرية. سخرية. إخفاق. خفقانُ قلبي لا يُطمئِنني وأذرُعُ فكرةٍ تجتاحُ أركانَ الخيال. أنا أعرف جيِّدًا ترجمةَ هذه الدَّقَّات غير المنتظمة. تُرى مَن كان يُغنِّي (أسير العشق ياما يشوف هوان) أفضل؛ داود حسني، أم سليمان أبو داود؟!

11

دنا الترام من محطة الشاطبي، ففارقتُ الأريكة الحمراء، واتجهتُ صوب الباب الأوسط. أمسكت بالقائم المعدني المجاور للباب لكيلا أقع، وبعد قليلٍ من التأرجُح، توقف الترام.

ترجَّلتُ منه معبَّأً بالهموم؛ وبخُطًى حثيثةٍ، عبرتُ الطريق الطويل المفضي إلى شارع بورسعيد حيث بغيتي. كانت الشمس تطرف، فتارةً تسطع وتارةً تستتر، لكنَّ شعاعَها بات عن إذابة البرودة عاجزًا. وضعتُ الحقيبة تحت إبطي الأيمن، وضممتُ الجاكت بعد ارتجافةٍ، وأسرعتُ في سعيي.

بعد دقائق، وصلتُ إلى شارع بورسعيد النظيف. عبرتُه بحذرٍ قفزًا متحاشيًا السياراتِ المسعورةَ التي هيَّجَ قائديها فراغُ الشارع. بعد أمتارٍ قليلةٍ، دلفتُ أخيرًا من البوابة المعدنية التي تقود إلى وادي شياطيني!

كانت إحدى العاملات (هُمَّ غيَّروها ولَّا إيه؟!) جالسةً خلف طاولةٍ قابلةٍ للطيِّ، عليها ساندوتشات فول وفلافل ومخلل مختلفة ألوانه، تفصل بينها وبين رجل كبير السن (الراجل ده ما شفتهوش قبل كدا!) لعله زميلها في العمل. ترامت إليَّ – قبل أن ألقي السلام – عبارةٌ غريبةٌ من حديثهما، لم أُلقِ لها بالًا – للأسف – في وقتها!

"والله البلد ما عاد فيها أمان... حتى الرجَّالة بيتعمل فيهم كدا؟!".

– سلامو عليكم.

ردَّت العاملة – بفم مليءٍ بالفول – عليَّ السلام، ثم سألتني سؤالًا أبلهَ حين مددتُ إليها يدي بثمن التذكرة، جنيهين معدنيين:

– أجانب ولَّا مصريين؟!

ابتسمتُ ساخرًا. أيَّ أجنبيٍّ ظنَّتْني؟! ليبيًّا مثلًا؟!

– مصري طبعًا. ده بالذِّمَّة شكل أجانب؟!

ومستطردًا، وأنا أشير إلى الموقع الأثري الخاوي:

- هوَّ ماحدِّش هنا ولَّا إيه؟

- إحنا لسَّه الصبح.

كأنَّ أحدًا يأتي في الصباح أو غير الصباح أصلًا!

جاوزتُ المرأة وزميلها المنهمك في الأكل، وتوغلتُ في المكان المفعم بأصالة القرون، وقصدتُ إلى أول ما أقصِد إليه عادةً. انحرفتُ يمينًا، وسرتُ حتَّى وقفتُ على أجمل أثرين بمقابر الشاطبي الأثرية. منضدة رخامية ثُمانيَّة الأضلاع، في لون الرباب المحلِّق في الأفق الأزرق الذي يمسُّ البحر، الذي بيني وبينه شارع الكورنيش، ويبدو أمامي مُرهِصًا لثورةٍ تؤجِّجُها الرياح؛ وبجوار المنضدة عمودٌ من نفس خامتِها، والنباتاتُ الشيطانيةُ تملأ الترابَ الذي يحوطهما.

هذا هو المكان الذي سأغتالُ فيه ذكرياتي السيئة، وأخلق من ترابه طائرَ العشق الأبدي (*هل يطيرُ العشقُ أم يُلقِي جذورًا في السَّحَاب؟!*)، وأنفخ فيه الروح. بعد قليلٍ، يحين موعدي مع

الناقد. الموعد الذي سيمهِّد لمناقشة روايتيَّ أو إحداهما (أتمنَّى!) في أحد قصور الثقافة أو في مكتبة الإسكندرية، فيَذيع أدبي، ويُفحَم كلُّ كفيفٍ (كاللزج الذي لَقيتُه في الترام) لم يستطع أن يستنبط من أدبي دُرَرَه. سأنتقم من صاحب دار الحَلبة، وأرد اعتباري لدى يمنى التي ينبئني قلبي بأنَّ عشقي لها لم يفترْ، وأنه لم يزل كما هو منذ اللقاء الأول، وأنَّ بوُسعي أنْ أجدِّد وصلَها (هل أستطيع؟!). الفضل لصديقي طارق. رسالتُه أمسِ خيرُ مثالٍ على نُبلِه. أحبُّه لأنه يهتمُّ بي من دون كل الناس. مَن غيرُه يُنصتُ إليَّ حين أتحدَّثُ عن فكرة (الكيتش) لدى كونديرا، أو (العَوْدِ الأبدي) عند نيتشه، أو عن مغزى عجلة (دارما) في العقيدة البوذية، أو غير ذلك من الأفكار التي تُعَدُّ عند العامَّة جنونًا؟ لقد أحسن تثقيف نفسه، واجتهد كثيرًا ليبلغ عقله هذه المرتبة؛ فالعقبات التي كانت دونَ ثقافته، أشدُّ مِنَ التي واجهتني؛ فلم يكن له عمٌّ محب للقراءة كعمِّي. أهله جميعهم أجهلُ من الدوابِّ العجماء؛ ولهذا فضَّل أن ينقطع عنهم تمامًا في غرفته الصغيرة التي هي فوق سطح أحد منازل أرض عبد

الباقي بالحضرة، والتي يستأجرها من امرأةٍ عجوزٍ، ثدياها كبيران، كانتْ له معَها مغامرةٌ عجيبةٌ! لجأ إلى الاستقرار في تلك الغرفة بشكلٍ دائمٍ بعد مشاجرته مع أبيه لخلافاتٍ عقائديةٍ، وهجره منزله بدمياط! كان معتادًا على زيارة أهله كل أسبوعين لتزويده بالمصروف والطعام؛ فهو يدرُس الموسيقى في كلية التربية النوعية. لم يعد يتصل بهم، وعرقل كل محاولات الصلح التي اجتهدت فيها أمُّه وأخوالُه (قلب الأم بقى!). أبوه وأعمامه كانوا برحيلِه مستريحين؛ فقد كان كثير الحِجاج، لا يسكت عن الباطل، ويسخر دائمًا من حرص أهله على حلقات الذكر، وتقديس الخرافات والأوهام! لم يشكُ من انقطاع الراتب نصف الشهري الذي كان يتقاضاه من أبيه، وبدأ يعمل إلى جانب الدراسة، في أحد مكاتب التصوير، في الفترة المسائية، بمرتبٍ يضيعُ نصفه على إيجار الغرفة الضيِّقة! تسجيلاته التي سمعتها أمس، وبهرتني، هي عيِّنةٌ من مشروعه الضخم، الذي يريد به أن يُقدِّم القرآنَ كاملًا مغنًّى بصُحبةِ العود! مشروع مجرم! سأخبره مساء اليوم بعد الوردِيَّة، ونحن حول الشراب

السحري، عن رأيي في ما سمعته أمسِ.

تحسَّستُ بيُسراي سطحَ المنضدةِ الناعمَ الذي تتوسطه دائرةٌ بديعةٌ، تغور من حولها في المنضدة، أربعةُ مربعاتٍ لا أدري فيمَ كانت تستخدم. وأغمضتُ عينيَّ محاولًا تخيُّل شكل اليد التي مسحتْ عليها قبل أكثر من ألفَيْ سنة. اليد المتلفِّع جسد صاحبها (أو صاحبتها) بالهيماتيون الإغريقي. هداني التخيُّلُ إلى قُشَعريرةٍ لذيذةٍ منعِشةٍ انتشرتْ في عنقي؛ فقد أشبهت اليدُ الخياليةُ يدَ حبيبتي يمنى التي مدَّتها إليَّ أمسِ بعشرة جنيهات!

***

(الخميس من النهايات القليلة التي ينتظرُها الإنسانُ في عمرِه. كنت أتشوَّفُ دائمًا في الطفولة لالتقائه، لألعب وألهو، وبرغم هذا كثيرًا ما عاقبني فيه أبي لجرائمَ كبرى (في نظره) اقترفتُها أثناء اللهو! وفي سنوات نضجي، أظلُّ طَوال الأسبوع أصبو إليه لأضاجِعَ أمَّ العيال، برغم ما ينسفر عنه الجماعُ من مُتْعَةٍ باردةٍ، تنفثُها مفاتنُ، لو تحلَّلَتْ لأغرت أكثر من إغرائها وهي مجتمعةٌ بجَسَدِ أمِّ العيال الدميم! لا أدري لماذا أُصِرُّ على

انتظار الخميس، ولا لماذا حبَّبَ موضعُه من الأسبوع إليَّ النهايات. إنَّ للنهاية سحرًا لا يُوصف، وإن أفضتْ إلى الهلاك؛ فحَسبُها فضيلةً إمكانية انفراجها عن أمرٍ مُختلفٍ، ولو صُدفةً).

(نافذة بلا كوخ – ص 119)

12

جولة. المشيُ يُريح. ومهبطُ الوحي الذي نسجتُ فيه من حياة سُكَّرة روايةَ (دموع الحجر) يُرَحِّب بسَحْبِ حَوَاجزِ أتراحِ الحياةِ عن رُوحي. جولة. المشيُ رفيقٌ وطبيب. رمال الموقع الأثري تحمل في تلبُّدِها آثارًا من مطرٍ قريبٍ. الدائرة (التي تتكوَّن من أعمدةٍ بيضاءَ متباينةِ الأطوال، كُتِبَتْ على كلٍّ منها أرقامٌ بطلاءٍ أسودَ مُشَوِّهٍ "24 - 21 - 125 - ..."، تُحدِق بتمثالٍ (يحمل رقم 129!) يرتكزُ على قاعدةٍ حجريةٍ مربَّعةٍ. تمثال لكِيانين بشريين متعانقين يرتديان الهيماتيون، وعناقهما حزين، يبثُّ الأسى والقنوط؛ وتملأ المساحةَ ما بين التمثال والأعمدة نباتاتٌ خرزيةُ الأوراق متشابكة، لا ترتفع عن الأرض إلَّا سنتيمتراتٍ قليلةً، لونُها أخضرُ غامقٌ. جولة. المشيُ دواءٌ للمهموم. الجبَّانة تُطلُّ عليَّ بعيونها التسع، وذراعيها اللتين في باطن كلٍّ منهما تسعة أعينٍ أُخَر. استدرتُ. مشيتُ. عينٌ منحوتةٌ تُشبه بئرًا أو إناءً للزهور. نحت مستدير يُشبه قمَّةَ

عمود. بل هو قمَّةُ عمود، ولكن الزمن جار عليه. أبو الهول مفصول الرأس. أعشقُ كلَّ شبرٍ من هذه المقابر العبقرية، ولعلَّك لا تدري – بل أنتَ بالفعل لا تدري! – أنَّ ثاني لقاءٍ جمعني بطارق كان في هذا المكان، الذي اكتشفته وأنا في السابعة عشرة من عمري. أيَّ الأحداثِ أذكرُ أوَّلًا؟! اكتشافي هذه المقابر، أم لقائي الثاني بطارق. سأراعي الترتيب الزمني. ذاتَ سَحَرٍ بعيدٍ (السَّحَر هو آخر الليل قُبَيل الفجر!)، من يومٍ لعلَّه كان الخميس، من زَمَنٍ كنتُ فيه طالب ثانوية عامة عظيمَ الضَّجر، ملتبس الأفكار، يفضُّ كلَّ كتابٍ أقرؤه بكارةَ خليةٍ من ذهني؛ أقلقني كابوسٌ مزعِجٌ، رأيتني فيه عاريًا، وفي موضع العَوْرةِ منِّي ذبابة زرقاء، بدلًا من الأعضاء الطبيعية! وما لبث الأفقُ أنْ أظلمَ، وبدأت أمطارٌ من سائلٍ أبيضَ لزجٍ تغمرُني، ونتأت من الأرض الرملية أشباحٌ يحمل وجهُ كلٍّ منها ملامح أبي الغليظة، عدا الأنف الذي كان أشبهَ بقضيبٍ مُرتخٍ، وجميعهم يردِّد في صوتٍ واحد: وبعدين! صحوتُ بعد معاناةٍ، وفي قلبي ضَيْقٌ لا يقل وطأةً عن الذي أُصِبتُ به وأنا مُحاصَرٌ في

ذلك الكابوس. جلستُ في الفراش. كانت الغرفةُ لا تزالُ مُظلِمةً. تركتُها قاصِدًا إلى الحمَّام، لكنَّني لاحظتُ أنَّ لمبة غرفة أبي وأمِّي مُضاءة. كانت الأشعَّة الصَّفراء تتسرَّب من تحت عقب الباب. اقتربتُ منها موجِسًا. تنصَّتُّ خشيةَ أنْ يكون أمرٌ غير محمود قد وقع لأمي (في ذلك الوقت كنتُ أحرَصَ عليها منِّي الآن). ترامى إليَّ صوتُ أنفاسٍ متلاحقةٍ. ازددتُ خوفًا. فتحتُ البابَ الـمُغلَقَ (آه وألف آه من الأبواب المغلقة!). رأيتُ مشهدًا، بغَّضَ إليَّ أبي وأمِّي تبغيضًا لا رجوعَ عنه. كانتْ على الفراش ساجدةً، في قميص نوم أخضر، وكان جالسًا خلفها على ركبتيه، مُولِيًا البابَ عَجُزه العاريَ، وهو لاصقٌ في أليتيها، يَلِج ويَخرُج. نظرا إليَّ نظرةً ذاهلةً أشبهتْها فيما بعدُ نظرةُ رباب حين فاجأني عُريُها (كان وجهاهما كجمرتين!). أغلقتُ البابَ سريعًا. عُدتُ إلى غرفتي، ووجهي ينبِض بدماءِ الخجلِ والصَّدمة. كنتُ أظنُّ في الماضي أنَّ شهوةَ الآباءِ والأمَّهاتِ تنقطع ما إنْ يفجؤهم الجماعُ بتولُّد كائناتٍ بشريَّةٍ عنه تسمو كثيرًا عن عِلَّة وجودِها (في نظرِهم)، لكنَّ هذا الظنَّ ثبتت

حماقته. وكنت أظنُّ أنَّ الآباء والأمهات يستحيون من ممارسة الجنس في منزلٍ يضمُّ بعضَ منتجاته (مثلي أنا ومريم وسحر التي لم تكن قد تزوَّجتْ بعد)، لكنَّ هذا الظنَّ أيضًا تجلَّت بلاهته. أمِّي القبيحةُ يضاجعُها أبي القبيحُ في وقتٍ نكونُ فيه أنا ومريم وسحر غارقِينَ في نُعاسٍ مُطبِق، لأنها ولأنه يستمتعان بهذا، ولأنَّ هذا - بكلِّ بساطةٍ - هو الزواج... الإطارُ الشرعيُّ لِلْمَنْيَكَة (التي بدأتُ تباعًا أكتشف أسرارَها في صندوق القمامة... أشرطة الڤياجرا، والنابي فت، وتايجر كنج، والترامادول الأخضر! إضافةً إلى الأوقيةِ الذكريَّةِ، وعلب المطهِّرات المهبليَّة الفارغة، والمبيد الـمَنَوي)!

ظلِلْتُ حتَّى موعد الذهاب إلى المدرسة بغرفتي. لـمَّا خرجتُ إلى الحمَّام لأتلقَّى دوش الصَّباح، تحاشتْ أمِّي محادثتي والنظرَ إليَّ؛ أمَّا أبي، فحين لَقيتُه وأنا خارج، ثبت لمواجهتي كالخنزير، غير متحرِّجٍ ممَّا وجدتُه عليه، ورأيتُه بعين قلبي على الصورة التي ظهرتْ لي في كابوس تلك الليلة الشنيع.

خرجتُ من البيت بعد أنْ ارتديتُ ملابسي، وحملتُ

حقيبتي على كتفٍ واحدةٍ، مُزمِعًا ألَّا أذهب إلى المدرسة، وأنْ أمارس طقسَ المشي لكي أتغلَّب على الذكرياتِ المنتصِبةِ في ذهني.

مشيتُ كثيرًا كثيرًا كثيرًا (تخيَّل المسافةَ ما بين مصطفى كامل فليمنج والشاطبي!)، حتَّى وصلتُ إلى مقابر الشاطبي الأثرية. أدهشتني اللوحة الرخامية اللاصقة بالسور المحيط بها، والمكتوب عليها: (مقبرة من عهد البطالمة ما بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد، اكتُشفت في سنة 1904). تأمَّلتُ اللوحةَ بُرهةً، وأضفتُ إلى فضولي فضولًا آخرَ لمعرفة سرِّ إصرار الناس على الاستمرار في تسمية التقويم الشمسي الجريجوري بالتقويم الميلادي، برغم أنَّ تاريخَ ميلادِ المسيح مشكوكٌ فيه أصلًا (يُقال إنَّه وُلِدَ قبل الميلاد، لأنه وُلِد في بيت لحم، في أيام هيرودُس الملك، وفق إنجيل متَّى، وهيرودُس أصلًا مات سنة 4 قبل الميلاد! ما هذا الخَبَل؟!)، وبرغم أنَّ المسيح لم يقدِّم جهودًا علميَّةً عظيمةً مثلًا لاكتشاف التقويم الشَّمسي! المهم... دلفتُ إلى داخل المقابر بعد أن دفعتُ قيمة التذكرة، وأراحني

التَّجوُّلُ فيها مِنْ صدمةِ السَّحَر (لماذا تتزامن خبراتي الكبرى مع الصَّدمات الكبرى؟!) وأراحني كذلك مِنْ كافة الأفكار السيئة، والرَّغبات المدمِّرة (التي لا أريد أن أتذكَّرها فتخلع الباب الذي حجزتُها وراءه في ذهني). وطاب لي كثيرًا الوقوف أمام تابوتٍ أظنُّه من الجرانيت، شاءت الصدفة قبل عامين أنْ يكون عنده لقائي الثاني بطارق.

كنتُ أتلقَّى أمامه ذات يومٍ وحيَ روايتي الأولى (نافذة بلا كوخ)، التي استعنتُ بها كثيرًا (إلى جانب الرُّوسيَّات) على التغلُّب على الشِّدَّة التي ألـمَّت بي خلال أيام تحوُّلي الأكبر. وبينما أنا على حال الغياب في خيالاتي، إذ سمعتُ صوتًا خافتًا قادمًا من ورائي. التفتُّ لأتبيَّن كنه الشيء الذي أخرجني من تأمُّلاتي، فرأيتُ (خلافًا للسائحين الأشقرين اللذين يتجوَّلان في المكان)، طارق يقترب بقوامه المعتدل، مرتديًا تيشيرتًا يُفصح عن عضلات ذراعيه تامَّة الانتظام والانسياب، ومنكبيه العريضين، وبنطالًا أزرق، وفي وجهه ابتسامةٌ تشفُّ عن أسنانِهِ غيرِ فِجَّة الاصفرار، ونظرةٌ ذكيَّةٌ من عينيه الواسعتين اللتين

يحسبهما الناظرُ إليهما مكحَّلتين لفرط سواد أهدابهما وطولِها. واصل اقترابَه، فسلَّمتُ عليه، وقلتُ له متبسِّطًا (بفعلِ اللقاء الأوَّل الذي تبادلتُ فيه معَه أحاديثَ كثيرةً)، وأنا أشير إلى شعره المصفَّف إلى الخلف (خلافًا لما كان عليه في اللقاء الأوَّل!):

- إنتَ بقيت بوهيمي ولَّا إيه؟!

كان جوابُه كاشفًا لجوهره العميق، وثقافته الواسعة. قال لي بصوتِه الفخم، وابتسامته الهادئة:

- Shall I part my hair behind? Do I dare to eat a peach?

ومعنى ما قاله - الذي هو سطر من قصيدة: أغنية حب ألفرِد بروفروك لـ (تي.إس.إليوت) - "هل أرسل شَعري إلى الوراء؟ أتُراني أجرؤ على أكل خوخة؟!".

وقد كان إرسالُ الشَّعر إلى الوراء من علامات البوهيمية، في أيام (تي. إس. إليوت)!

سرَّني كثيرًا جوابُه الذكي. ولـمَّا سألتُه عن سبب زيارته لهذا

المكان، قال لي أنه ينوي ألَّا يترك مكانًا أثريًّا في الإسكندرية دون زيارة، وشاءت الصُّدفة – الغريبة جدًّا – أنْ ألتقيه في ذلك اليوم، لتُمهِّد ساعتا الحوار اللتان نُسِجَتا بيننا، أواصرَ صداقةٍ عميقةٍ، لم تفتُر لحظةً. ولقائي اليوم بالناقد، ومعاقرتي القودكا معَه عندما يأتي هذا المساء، أعظمُ مثالٍ على قوَّةِ هذه العَلَاقة، واستحالة زوالها.

***

نُون
هَلْ تَسْطُرُون؟!
هَيَّا اكْتُبُوا
بُعْدًا لِرَائِحَةِ الحَشِيشِ تَحُوطُ وَجْهَكَ يَا أَبِي
بُعْدًا لأَلْوَانِ القياجرا والسيالسِ
كُلِّ آثَارِ الجِمَاعِ عَلَى فِرَاشِ العَائِلَة
بُعْدًا لأخْدُودِ الـمَشِيبِ
ظَلَامِ قَلْبِكَ
نَتْنِ قَوْلِكَ

وَالهِبَابِ الأَحْمَرِ الـمَلْعُونِ يَضْحَكُ فِي الكُؤُوسِ
وَذِكْرَيَاتٍ لَا تَزُورُ الفِكْرَ إِلَّا كَيْ تُعَكِّرَ صَفْوَ أَيَّامِي
وَتَأْبَى أَنْ تَغِيبَ
بِغَيْرِ إِبْرِيقِ الدُّمُوعِ الجَاثِيَاتِ
وَطَيْفِ يُمْنَى
وَالقَلَمْ

(مِنَ الرُّوسيَّات)

13

يا ترى هاتْكِسي؟!

سألتُ نفسِي متقزِّزًا، وأنا أجفِّف شعري الخفيفَ كالمجنون بمنديلين اقتطفتُهما من العلبةِ البيضاءِ، لأزيل أثرَ قطرةِ البراز التي أمطرها عليَّ طائرٌ مُسالمٌ، أَبَى إلَّا أنْ يدفن فضلاته السائلة (التي تستحق أن يحسُده عليها مَن هو مثلي، لا يتخلَّص من نواتج أمعائه إلَّا ولادةً كلَّ يومين!) في مقبرةٍ أثريَّةٍ. لكنني - برغم هذا الاشمئزاز - شعرت بالامتنان لذلك الطائر الذي لم أرَه؛ لأنه أوَّلًا غيرُ أكول (وإلَّا لأغرقتني فضلاتُه أكثرَ من ذلك!)، وثانيًا لأنه أخرجَني من أدغال أفكاري (وأي إخراج؟!) قبل أن يفوتني موعدي مع الناقد. نظرتُ إلى ساعة يدي. الساعة العاشرة والربع. خرجتُ مُسرِعًا إلى الشارع. اشتريتُ زجاجة مياه من محلٍّ قريبٍ. أفرغتُها على شعري (كويِّس انُّه خفيف، وإلَّا كانت تبقى مصيبة!). جففتُه ببقيَّةِ

المناديل، ثمَّ ألقيتُها بصُندوقِ قمامةٍ (مشيتُ لأبلُغَه أربعًا وثلاثين خطوةً على الرصيف). يا دي القرف! مش فاضل لي غير عشر دقايق! أوقفتُ تاكسي، وأخبرتُه بوجهتي. ركبتُ، وأنا أتساءل عن العَلاقة ما بين الكساء وخُرءِ الطيور في الوجدان الجمعي للشعب المصري العظيم!

14

– والله العظيم يا باشمهندس لو نمت في البلكونة لامؤاخذة مع مراتك، ما حدّ شايفكم. حاجة كدا منك للسَّما!

نظرتُ إلى السائق بجانبَيْ عينيَّ، وأنا جِدُّ مستعجبٍ من تشبيهه (البضين). عرفنا يا سِيدي انّ صاحبَك ساكن في آخر دور من عمارة 18 دور مبنيَّة مخالف، في منطقة شعبية أعلى عمارة فيها 12 دور. عرفنا يا سِيدي انَّها قدّ العمارة اللي احنا واقفين جنبها في الإشارة. إيه بقى لازمة (البَضْيَنة) دي؟! برغم أنني أُعَدُّ سائق تاكسي، إلَّا أنني لم أنحدر، ولن أنحدر أبدًا إلى ذلك الدرك الشنيع!

– بسّ العمارات دي السكن فيها مش أمان.

رفع رأسَه قليلًا، وشمخ بأنفِه (تقريبًا ده بديل للشَّخْر!)، وقال ساخرًا:

– كسّ ٱمّ الأمان! مين يا باشا بيدوَّر دلوقتي ع الأمان؟! دا

اللي بيلاقي عشَّة يقفلها على نفسه وهوَّ نايم مع مراته ع الفِطرة بيحمد ربِّنا. أمان إيه يا باشا؟ دا الواحد وهوّ قاعد مع اصحابه – لا مؤاخذة – بيعمل دماغ، ممكن يطبّ ساكت. ما فيش أمان لا فْ شارع ولا فْ قهوة ولا حتَّى فْ بيتك. كلُّه خَرَا. تخيَّل فيه عيِّل ولاد الهرمة نيِّلوه من وَرا الأسبوع اللي فات، ولقوه ميِّت ع الكورنيش، هدومه متقطَّعة.

أربكَني كلَامُه، وأحسستُ له صدًى في الماضي القريب، فسألتُه:

– يعني إيه اتنيِّل من ورا؟!

نظر إليَّ باستغرابٍ، قبل أنْ يقول:

– يعني اغتصبوه يا باشمهندس. اغـ.تاصا.بووه! آه والله زيّ ما باقول لك. ماحدِّش عارف مين اللي عمل كدا. بسّ شكله لِعب على كبير... إنتَ فاهم!

لم أستطع أنْ أستفسِرَ منه عن أكثر من ذلك، لأنَّ مجمع الكلِّيَّات النظرية أصبح عن يمين التاكسي. طلبتُ منه أن

يتوقَّف، ونقدتُه أجرَه. ترجَّلتُ ونظرتُ في الساعة. العاشرة والنصف. اعتصر الضَّيق قلبي، فجاد بدَقَّةٍ غبيَّةٍ ناشِزَة، انطلقتُ إثرَها أجذِّف في أكوام الطلَّاب والطالبات، راجيًا أنْ أصلَ في أقل دقائق تسمح لي أن أعتذر عن التأخير دون خجل.

15

بعد جولةٍ في متاهات كلِّيَّةِ الآداب، وكثيرٍ من الأسئلة عن مكان مكتب الدكتور (حسن أبو طالب)، وصلتُ أخيرًا إلى رواقٍ، أشارت إليه موظَّفةٌ سمينةٌ حين سألتُها. سرتُ فيه (*الساعة 11 إلَّا تلت!*) مُسرِعًا. كانت في منتهاه غرفة، بابها في الجدار الأيمن. كان خارجًا منها رجلٌ لم تُرحْنِي هيئتُه التي فيها كثيرٌ من سِمَات رجال عصر مبارك (مُحترفي التطبيل للنظام). القامة الطويلة... البذلة الزيتونية اللون... الوجه الأحمر الطويل الخَدَّيْن... الشعر الأسود الفاحم الذي يتناقض مع تجاعيد الجبهة... الأنف الضَّخم الغاصّ بشُعَيْرَاتٍ شائكةٍ... العينان الضيِّقتان الشريرتان! لم يُرحني. نظرتُ إلى اللوحة الصغيرة التي عن يمين الباب... أ. د. حسن أبو طالب. تنحنحتُ، ثم ألقيتُ عليه السلام، وعرَّفتُه بنفسي. فغر فاه قليلًا، وبدأ يتفحَّصني بعينيه اللتين تنافسان في اللزوجة عينَي فتى الترام، وقبل أن ينبسَ بحرفٍ، قلتُ له معتذرًا:

– أنا آسف على التأخير يا دكتور... الزَّحمة بقى.

أطبق شفتيه. هزَّ رأسَه برويَّةٍ. انفرجت شفتاه عن صوتٍ متحشرجٍ!

– فعلًا انتَ اتأخَّرت عشر دقايق كاملين! أنا كنت باستعدّ لإني أسيب المكتب علشان بعض المشاغل في القسم. لكن خلَاص... اتفضَّل.

دلف إلى الغرفة، وتبعتُه. كانت بسيطةَ الأثاث (هل هذه الرَّائحة العطرية من ضمن الأثاث؟!). مكتب وراءه نافذة مفتوحة... مقعد الدكتور... مقعدان جلديان أمام المكتب... مقعدان بجوار الحائط الأيسر... على المكتب أربعة أو خمسة كتب، وجريدة الجمهورية (جمهورية الخميس اللي عندها انتفاخ!). جلس على مقعده، وأشار إليَّ بالجلوس. بدأتُ الكلام قائلًا في مُداهنةٍ (كذب×كذب!):

– طارق كان كلِّمني عن حضرتك كتير. أنا كمان متابع دراسات حضرتك النَّقديَّة في الدَّوريَّات الثقافيَّة.

هزَّ رأسَه في كبرٍ ممتزجٍ باللا مبالاة، فأردفتُ:

- وأكيد طارق إدَّى لحضرتك الروايتين اللي انا ألِّفتهم علشان حضرتك تقول لي رأيك فيهم، وبعدين يبقى فيه - في أقرب وقت - ندوة مثلًا لمناقشة واحدة منّهم في أي ملتقى ثقافي.

قطَّب فجأةً، وتساءل متراجعًا برأسِه:

- مناقشة؟! طارق ما قالليش حاجة بالشكل ده خالص!

قلتُ مستدرِكًا:

- أنا أقصد انّ ده هوّ الوضع الطبيعي اللي بيحصل لأيّ حدّ بيألِّف كتاب.

أومأ، وهو يخرج من جيبه سيجارة بنية رفيعة، وقال وهو يُشعلها بقدَّاحة (أظنُّها مطليَّةً بالذهب):

- أنا هاحكي لك (اشتعلَت المقدمة) قصَّة صغيَّرة خالص حصلت معايا شخصيًّا (امتصَّ الفلتر فازدادت المقدمة توهُّجًا ثمَّ شهق بعمقٍ ليدفع ما امتصَّه كاملًا إلى داخل رئتيه).

نظرتُ إليه متوتِّرًا من كلامِه الذي يُنذِرُ بالسُّوء، وأنصتُّ إليه، وهو ينفث عمودًا أزرقَ من دُخَانٍ (أظنُّه برائحةِ القهوة بالكريمة).

– مرَّة كنت رايح النادي زمان مع أحمد ابني وهوَّ صغيَّر. هوَّ دلوقتي معيد في كليّة الآداب. كنت رايح علشان اشترك له فْ تدريب الكونغ فو، وشفت صف ولاد تبع التدريب، كانوا بيجروا في التراك. لفت نظري ولد بكرش ومصاب بمرحلة خطيرة من السمنة عمّال بيجري ومش قادر ووشّه محمرّ وبينهج وحالته صعبة. سألت المدرب مستغرب: هوّ ازّاي حدّ بالوزن ده بيتدرب كونغ فو؟! دي لعبة السرعة والرشاقة. ضحك وقال لي: يعني انتَ شفته أخد بطولة العالم؟! أهو بيجري وخلاص. ومناقشة ناقد زيي لرواية واحد من الكتَّاب هي البطولة يا جابر. فاهمني؟

صدمني مثالُه، فقلتُ له شاردًا:

– مش فاهم.

أخذ نفسًا آخر من السيجارة العَطِرة، ثم مال بوجهه الأحمر وسط زفيره الأزرق، وقال:

– يعني أيّ حدّ ممكن يكتب وينشر. أيّ حدّ ممكن يبني عمارة ويعلِّي. أيّ حدّ ممكن يتعلِّم حركات الكونغ فو ويأدِّيها. بسّ مش كل واحد ممكن...

وقطع كلامه (لوضوح بقيَّتِه) بنَفَسٍ من سيجارته ضَيَّقَ عينيه.

أحسستُ ثقلًا في لِساني. لماذا لا يُسعفني الآن؟ أشحتُ وجهي عنه. كأنَّ سيجارتَه انتصبَتْ وانتفخ رأسُها ثمَّ أدناها من فمي لينكح بها بُلعومي! ظَلِلْتُ صامتًا، فجاء قولُه التالي لينثر أشلائي.

– الروايتين سطحيتين. بيقدِّموا واقع محنَّط مش قادر أحسّ بيه ولا اسمع أصوات شخصيَّاته. السرد متكلَّف. الأسلوب قديم جدًّا وفيه ألفاظ مستخدمة بتوضَّح انّ حساسيتك اللغوية حساسية مُعجميَّة مالهاش عَلاقة بأرض الواقع، برغم انّ

الروايتين المفروض بيتكلِّموا عن أحداث حاضرة! مش شطارة تكتب زيّ الجاحظ. الجاحظ لو كان بيكتب زي قس بن ساعِدة كان زمان الناس في عصره قطَّعوه. وكمان استعراض عضلاتك اللغوية في النص شيء مش مطلوب لأنك في النهاية مش هتتفهم، والإفهام والتواصل هو غاية وجود اللغة. السطرين دول مثلًا:

Edel sei der mensch
Hilfreich und gut

اللي همّ أول سطرين من قصيدة جوته المشهورة (الإلـٰهي)، واللي وردوا في رواية الإخوة كرامازوف لدستويفسكي، ومعناهم: دع المرء يغدُ كريمًا ونبيلًا وصالحًا. هل فرق معاك المعنى لـمَّا سمعت الشعر ده بالألماني؟! ولا أي حاجة. كلام ألماني زي أي كلام! وده بالظبط اللي بيحصل مع القارئ لـمَّا بيصادفه لفظ عربي ميِّت. فاهمني؟ على مستوى الحبكة. شفت انَّها تقليديَّة في الروايتين وغير كدا مليانة ثغرات. حسِّيت وانا باقرا انَّك ما قريتش مراحل تطوُّر الرواية العربية ووقفت عند المحاولات البدائية اللي كانت في أواخر القرن التسعتاشر

وأوائل القرن العشرين، فلقيت انّ صوت الواعظ في السَّرد مسكِّت تمامًا صوت الفنَّان، وده شيء مش مطلوب في الفن. القارئ المفروض يستشفّ المعنى بعقله مش يلاقي واحد بيُملي عليه كأنُّه ما عندهوش عقل يفكَّر بيه. إضافةً إلى أنّ الروايتين عبارة عن sorry في اللفظ هذيان. مش عارف انتَ قريت ولَّا لأ قصّة عُمَر بن أبي ربيعة، وجرير اللي قال فيه: ما زال هذا القرشيُّ يهذي حتى قال الشعر. لكن الهذيان هنا من نوع مُختلف. هذيان مُراهق تايه في دهاليز ذاته، ومش عارف يخرج منها، وبيعتبر الكتابة مجرَّد وسيلة دفاعيَّة بيتغلِّب بيها على مشاكله الخاصَّة! مش أكتر من كدا. دا غير انّ فيه دواير كتير في الروايتين ما بتكملش، وفيه مشاكل في ربط علاقات الشخصيات بعضها ببعض، بالإضافة لإن إيقاع السرد بطيء جدًّا، لدرجة اني باحس ان افتتاحية كل رواية واخدة أكتر من نُصّها! أنا مستغرب انتَ ازَّاي عرفت تنشر الروايتين دول! فيه أدباء شُبَّان بيكتبوا أحسن من كدا بْمراحل ومش لاقيين اللي يقدَّر أدبهم وينشر لهم!

نازعتني في تلك اللحظة الرغبة في القتل، والانتحار، والثورة إلى أبعد مدى. التدمير الذي لا يفرِّق بيني وبين غيري. وخاصة حين شعَّ خدَّاه الأحمران صِحَّةً وتحذلُقًا، وهو ينظر إلى السيجارة النحيفة التي استحال نصفُها الأماميُّ رَمادًا أثناء محاضرتِه القصيرة. راودني نفس الشُّعور الذي اجتاحني ذات يومٍ بعيدٍ في المدرسة الابتدائية (وأنا في الصَّف الخامس) حين دخل أستاذ اللغة العربية إلى الفصل ليشرح الحصَّة الأولى، ونظر قليلًا إلينا، وسألنا قبل أنْ يبدأ الشرح عن سبب تأخُّر أحد الطلاب (كان اسمه خالد، وكان شديد الـمُجون والصياعة!)، فأجابه بعض الطلَّاب بأنَّه دائمًا ما يتأخَّر، فسأل مستنكرًا عن محلِّ إقامتِه، فأجبتُ اعتمادًا على ما أجابني به ذلك (الخالد) حين سألتُه ذات يومٍ عن مسكنه (دون أن أَعِي كنه الإجابة): في الكُسّ الاحمر يا أستاذ. الصَّمتُ ونظراتُ الوعيدِ غسلتني، وبدأتُ أحسُّ الإحراج. ولا داعي لاستكمال تذكُّر ما حدث، وما شعرتُ به، لكنَّه على أيَّةِ حالٍ لا يقل عمَّا يراودني الآن، وأضيفت إليه الرغبة في التدمير التي تجوس خلال

أعصابي دون توقُّف. ضَرَبَ على رأس السيجارة فوق المنفضة، فتخيَّلتُه في نفس مكانِها بين أصابع أضخم من منقار الرخ، تنتزع منه كبدَه وقلبَه انتقامًا منه لظلمِه البيِّن. لكنني عجزتُ عن فعلِ أيٍّ من هذه الخواطر، فأُذيبتْ في مرجل غضبي المكظوم، واستحالت دماءً غزيرةً، نبض بها أديمُ رأسي، وشوت حرارتُها دماغي، وتبخَّرتْ كل حُججي التي كان لا بد لي وأن أسوقَها لكي أشرحَ مذهبي في الأدب، وأهمِّيَّة أن يكون للأدب نزعةٌ تجديديةٌ متمرِّدةٌ على الموروث النقدي والأدبي، وأنَّ روايةً قدَّسَها الناسُ مثل الخيميائي لا تعدو كونَها كتابًا فِجًّا في التنمية البشرية! تبخَّر كلُّ هذا، ووجدتُني أقول له بنبرةِ مَن خَسِر كلَّ شيء:

– يعني مافيش ندوة؟

أجاب وهو يعتدل في مقعده ضاحكًا:

– لا... ندوة إيه؟! معقول نعمل ندوة واقول فيها الكلام ده؟! تسقط من نظر الناس على طول.

وأردف ناصحًا بنفس النبرة الـمُستفزَّة:

– أنا شايف يا جابر إنَّك تصرف نظر عن الأدب تمامًا، وترجع تكمِّل دراستك اللي انتَ سبتها – زيّ ما طارق قال لي – علشان تتفرَّغ للأدب. دستويڤسكي نفسه ما عملش كدا. كمِّل دراسته واستنَّى لحدّ ما اكتملت أدواته الفنية وبعد كدا نشر روايته الأولى وهوَّ عنده 24 سنة. وانتَ أكيد – بالشكل اللي انا شفته منّك ده – صعب قـوي تبقى دستويڤسكي. دا غـيـر انّ أدبك – بالصورة دي – مش محتاج واحد يتفرَّغ له علشان يقدر عليه.

هنا لم أستطع أن أتمالك أعصابي، فهتفتُ فيه شائطًا:

– خلاص سيادتك قلت كلّ اللي عندك؟

زمَّ أنفَه وأجاب:

– الحقّ مش بيزعّل.

نهضتُ صائحًا:

– دا مش حقّ. دا ظلم صريح، وكلام أيّ حدّ جاهل بيصبّر بيه نفسه علشان يدِّي لجهله مبرِّر.

تقلَّص أنفه اشمئزازًا وهتف:

- إيه ده يا بابا؟ انتَ مفكّر نفسك حاجة؟! جاهل وبتتأمّر. يللا امشي من هنا بدل ما اجيبلك أمن الكلية يتصرَّف معاك.

بصقتُ على الأرض، وخرجتُ من الغرفة هائجًا مُحطَّم الرُّوح، وصفقت البابَ من ورائي بشدَّةٍ، حتَّى حسبتُه سيئنُّ متألِّمًا، وفارقتُ الكلِّيَّة مُبغِضًا حياتي... بل الحياة نفسها. لماذا الظلم؟!

16

للأسف لم أُترَك بحالي، ولا أفسحت أمطارُ المصائب المتناثرة أمامي مجالًا للتفكير في وسيلةٍ ملائمةٍ أهدِّئ بها ذهني الثائر كأمعاء البراكين، أو لتسكين غيظي. رنَّ الموبايل وأنا على الرصيف الـمُطلِّ عليه مدخل مَـجْمَع الكليات النظرية. نظرتُ إلى شاشته المشروخة بالطول، فوجدت اسمَ حسام الجعار، زميلي في العمل على التاكسي ذي الوردية الصباحية. كنسلت، فعاود الاتصال، فلم يعد أمامي مفرٌّ من الاستجابة.

– أيوه يا حسام.

قال بحروفٍ مُهرولة:

– معلشّ يا جابر روح النهارده بدل مني فْ ورديّتي علشان مراتي بتولد. أنا استأذنت من الشيخ ياسر ووافق.

ففرَّغت فيه غضبي صارخًا بصوتٍ تعجبتْ منه مجموعةٌ من الفتيات ملبنيَّات القوام، وأنا أعتصر الموبايل:

– يعني هيَّ ناقصاك الساعة دي. لو تشوفني وانا طالع دين أهلي كنت انكسفت تتصل.

– يا جابر مالك. استهدَ بالله بسّ. باقول لك... مراتي... بتولد. علشان خاطري. أ...

أغلقت الهاتف – قبل أن يكمل – بضربةٍ عنيفةٍ فوق رأسه، انزلق من أثرها الجزءُ المتحرِّك منه، وانكمش الموبايل رعبًا. دسسته في جيبي بعد نفخةٍ حارَّةٍ أسكنتُها غَضَبي ولَوْعتي وأَلَمي وحَسْرتي وسُخطي وضَيقي وثَورتي.

كابوس أضيف إلى كابوس. هذا اليوم – بلا شك – هو يوم الكوابيس التي لا دواء لها، ولا صحو منها. يستحيل أن يمضي على خير. إن المصائب لا تأتي فرادى. حششتُ الخطى نحو الشارع الـمُفضي إلى الكورنيش لأستقل من هناك أية مواصلة تنقل أشلائي إلى سيدي بشر.

***

(لـقد تكدَّرتْ حياةُ الإنسانِ الحالـيِّ لأنَّ عمرَه طال، وعزَّ

– لتقدُّمِه الطبيِّ – أن ينال من بدنِه الهلاكُ، إلا بعد طول عناء، فانكشفتْ له بيِّنةً مساوي الحياة. إنَّ الخلودَ مُحالٌ، وحتى لو بلغه العلمُ، فسوف يُدرك الإنسانُ الخالِدُ في أحدِ أيَّامِ أبديَّتِه، الحقيقةَ، وعندئذٍ لن يُبقِيَ على حياتِه لحظةً أخرى. سينتحِرُ ملبِّيًا نداءَ غريزةِ الـمَوْت).

(كروان بثلاثة أجنحة – ص 71)

17

عيناه الشاخصتان نحو مكتبِه، وثغره المقوَّس لأسفل، ولحيتُه الثائرة غير الممشَّطة، ووجوم وجهِه المربد، وأصابعه التي تعبث في ما يليه من دفاتر حسابات وأقلام. كلُّ هذه الأمارات لا تبشِّر بخير، وإنْ كانتْ غيرَ مستغرَبةٍ بسبب تقلُّبِ مزاجِه المستمر. هوَّ انا إيه حكايتي مع اللي قاعدين ورا المكاتب من يوم محمود صبري ابن الوسخة؟!

دنوتُ منه قائلًا في نفسي اللاجبة التي فجَّر أعاصيرَها ذلك الحسن أبو طالب الذي لا نصيب له من علم ولا أخلاق: أهو دا اللي ناقص. الشيخ هوّ الاخر مكتئِب!

ألقيتُ عليه السلام بصوتٍ خافتٍ، فردَّه عليَّ مسلوبَ الانتباه، فذكَّرتُه بما أخبرني به حسام، فأومأ مُطَمْئِنًا، ومدَّ إليَّ يدَه بالمفتاح.

وأنا آخذُه منه، سألني:

– أظنّ انّ انا نسيت آخد منك امبارح الإيراد يا جابر. مش كدا برضه؟!

ارتسمت على وجهي علامةُ استفهامٍ كبيرةٌ، كشفتْ عجبي من سؤالِه الذي يناقض منحته السَّنِيَّة التي منَّ عليَّ بها أمسِ، وذكَّرتُه بما كان البارحة، فأومأ مُثبتًا دون أن يُعقِّب، ثمَّ أطرق وقال متنهِّدًا:

– كلُّ نفسٍ ذائقة الموت. أمر الله.

أحسستُ أنَّ مُصيبةً قد وقعتْ عليه، فسألتُه مستشعِرًا الرَّهبةَ بحذرٍ عمَّا يحزنه، فقال لي بصوتٍ خافتٍ:

– امبارح الساعة اتناشر ونصّ (ابتلع ريقه)، واحد من التوءم ربنا توفَّاه في الحضَّانة. ادعي بقى التاني...

ولم يُكمِل عبارتَه الحزينة.

نظرتُ إلى قدميَّ مُضمِرًا أسفًا حقيقيًّا صادقًا، وجد في نفسي المضطربة مُناخًا لا يُلائم إلَّا مشاعرَ القنوط، وانصبَّ أغلبُ أسفي على قلبي الحَسود، وخيالي القاسي الذي توهَّم

أمسِ الشَّيخَ ياسر في صورةٍ هو لا يُحبُّ التصريحَ بها. معقول! مات؟!

قلتُ له معزيًا:

– البقاء لله يا شيخ ياسر. ربنا يعوَّضك خير.

فهزَّ رأسَه ولم ينطق، فأخرجتُ من المحفظةِ ثمانين جنيهًا. وما إنْ لمح الأوراق حتَّى بسط كفَّه اليمنى قائلًا:

– لا يا جابر. والله ما يحصل. ربنا يكرمك.

وكانت نبرتُه، والموقفُ الذي كنَّا فيه، ممَّا لا تُستحبُّ فيه كثرة الكلام. أعدتُ النقود إلى المحفظة، واستأذنتُ منه معيدًا عليه (البقاء لله)، عالـمـًا – دون أن يُفصِح – أنَّ المنحة ليستْ إلَّا ليومٍ واحدٍ لا غير، وأنَّ قادم الأيام سيكون كسابقِها لدى الجميع. وَحْدِي أَنَا سَاحِلٌ نَحِيلٌ. يَسُومُنِي الـمَوْجُ كُلَّ سُوءٍ. وَكُلَّ يَوْمٍ تَضِيعُ منِّي... أحلامٌ بلا مقابل! متى ألقى الڤودكا يا خالِقَ الڤودكا؟!

***

(إنَّ أعظمَ ضربةٍ يَكيلُها الأحياءُ لهذا الكوكبِ الظالمِ الذي خلقهم من ترابٍ (وميثان وأمونيا وهيدروجين تحتَ غلافٍ جويٍّ مُختزِل!) أنْ يمتَنِعوا عن التَّكاثر مثلما قال الحكيمُ العظيمُ (ماني). ولماذا يمتنعون عن التكاثر؟! لو ظلَّ السُّوقَةُ والدَّهْمَاءُ والجُهَّالُ هم الأحرصَ على التكاثر، لانقرض البشرُ من تلقاء أنفسِهِم!).

(كروان بثلاثة أجنحة – ص 107)

❋ ❋ ❋

البقاء لله.

(كلمتان ابتذلتْهما الألسُن)

18

فهمتُ من مكالمة حسام التي صببتُ عليه فيها غضبي من الدكتور الـمُنحَط، أنني سأعمل بدلًا منه في ورديته، حتَّى إذا حلَّ منتهاها انقضَتْ مهمَّتي، وتسلَّم هو التاكسي، ليعمل في وقت ورديَّتي؛ فمُحالٌ أنْ أظلَّ كالثَّور، أدير الدركسيون صباحًا وظهرًا وأصيلًا ومساءً.

انطلقتُ بالسيَّارة. لم أجرِّب قطُّ أن أعملَ نهارًا. الشوارع أشدُّ ازدحامًا، والناس متكتِّلون بعضهم فوق بعض، والكلاكسات التي لم يكن في الماضي لها أيُّ حضور في شوارع الإسكندرية أصبحت تُنافِس كلاكسات القاهرة. الشُّعاعُ العِنِّينُ يُحاول فتقَ بكارة السماء، مِصداقًا لبيت الشِّعر المشهور الذي لا يعرفه أحدٌ غيري!

يُحَاوِلُ فَتْقَ غَيْمٍ وَهْوَ يَأْبَى
كَـعِـنِّينٍ يُـحَاوِلُ فَتْقَ بِكْرِ

يَنجحُ مرَّةً ويُخفقُ مرَّاتٍ؛ ولعلَّ سرَّ هذا أنَّ السُّحُبَ تعاني بُرُودًا جنسيًّا، فلم تَـجُدْ حتَّى الآن بأيِّ أمطارٍ (تُزَيِّت) طريقَ الشُّعَاع! ده برضه وقت التخيُّل؟! وهوَّ الخيال عمره بيشتغل إلَّا وْحَدّ فاشخني فْ أفكاري؟! على أيَّةِ حالٍ، تابعتُ التجوُّل في النهار الخافت البارد منتظرًا أول زبون. ضبطتُ الراديو على إذاعة الأغاني، وداعبتُ بسبَّابتي المثلَّثَ المعطَّر، فأخذ يدور حول نفسِه. حاولتُ أنْ أطرد من ذهني بصوتِ عبد الحليم حافظ الذي يُغني (أسمر يا اسمراني)، الذكرى القريبةَ المؤسفةَ. لا... ليست حرماني من منحة الشَّيخ بقية أيَّام الأسبوع (برغم احتياجي للمال، لكي أسدِّدَ الدَّيْن الذي لا أرتضيه أبدًا مهرًا لرباب؛ ولكي أقوم بشيءٍ آخرَ بدأ يُداعِبُ خيالي منذ خَلوة المقابر). إنها ذكرى الناقد الأعمى التي زادَها اضطرامًا خبرُ وفاة ابن الشيخ ياسر. برق في ذهني احمرارُ وجه الناقد وضيقُ عينيه، فهززتُ رأسي بعُنفٍ لأسقط منه صورتَه الغبيَّة. إنَّه سطحيٌّ كالناس، جاهلٌ مثلهم. يرى في الفلسفة التي فاضت بها روايتاي وعظًا وإرشادًا! أظنُّ أنني لو كنتُ بدأتُ الرواية

بقصَّةٍ تافهةٍ مثل: في يوم من الأيام، يا سادة يا كرام، دخل طفل إلى محل حلَّاق، فهمس الحلَّاق في أذن الرجل الذي بين يديه: ده أغبى طفل في العالم، وهاثبت لك ده دلوقتي. وضع الحلاق في يده اليمنى جنيهًا وفي اليسرى ربع جنيه، وطلب من الطفل أن يأخذ أحدهما، فأخذ ما باليد اليسرى، وانصرف، فقال الحلاق للزبون: غبي. عمره ما بيتعلِّم! كلّ يوم يعمل كدا وعمره ما فكّر ياخد الجنيه. بعد أن خرج الزبون من محل الحلاق، شاهد الطفل في محل للأيس كريم فاقترب منه وسأله: إنتَ اخترت ليه يا حبيبي الربع جنيه بدل الجنيه؟! فأجابه الطفل: في اليوم اللي هاختار فيه الجنيه، اللعبة هتنتهي! لو كنتُ فعلتُ ذلك لجعلني الناس پاولو كويليو مصر! ناقد مُغفَّل. أُرَجِّحُ أنَّه غار مني، أو عجز عن فهمِ بعض الألفاظ أو الأفكار في الروايتين. وطارق... لا أعرف هل ألومُه أم أعذِرُه. لقد خُدِع دون شكٍّ في ذلك الناقد السَّطحي. سأحدِّثُه اليوم بشأنِه وأردِّدُ أمامه بأنفةٍ قول المتنبي:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ

فَـهِي الشَّـهَـادَةُ لِي بِأَنِي كَامِلُ

هه... الله عليك يا ابو الطيِّب... شِعرك مُرِيح.

وَمَـنْ كَانَ عَـزْمِي بَيْـنَ جَنْبَيْهِ حَثَّهُ

وَخَيَّلَ طُولَ الأَرْضِ فِي عَيْنِهِ شِبْرَا

الله عليك يا ابو الطيِّب. لكنَّ ذكرى وفاة ابن الشيخ ياسر أيضًا لا ينسيني إياها صوتُ عبد الحليم ولا شعرُ المتنبي. ذكرى الـمَوْت تدعو الـمَوْت. حتَّامَ أصبِّر نفسي على الإحباط بشعرٍ أو بروايةٍ أو بأغنيَّةٍ؟ أريد أن أنالَ سعادةً حقيقيَّةً وسط يومَي الإحباط العَمِيم؛ أمسِ واليوم. صورة يمنى تحتلُّ جزءًا كبيرًا من فكري الآن، ووجهُها البديع يوشك أن يدفعَني إلى جنونٍ أخشاه! وأمواج الإخفاق المتراكبة ستُفضي إمَّا إلى كلِّ شيءٍ، وإمَّا إلى لاشيء! ذهني مُرتبِكٌ ومشتَّتٌ. أحزنني بصدقٍ خبرُ وفاة ابن الشَّيخ. لم أحزنْ قط على موتِ أحدٍ ممَّن خالطتُهم إلَّا عمِّي. يوم وفاة أبي كان أشبهَ بِعيدٍ علَّقتُ زينتَه على جدران

وجداني، وها هو الحزن يتجدَّدُ لموت الوليد. لعلَّه استراح. إنَّ النشأةَ في كنف الشيخ ستكون – دون شكٍّ – سبيلًا ممهَّدًا لحياةٍ من الخرافةِ الـمُفسِدة، وعذابًا شنيعًا. جيِّدٌ أنَّه مات، والعقبى لأخيه! الموت مؤسِفٌ بَيْد أنَّه ضرورة. هو الضريبة التي تؤدِّيها إرادةُ الحياة الكونية، إلى إرادة الموت المستقرَّة في جميع المواد، والتي تُحافظ على ثباتِها. تقول إرادة الحياة: سأهَبُ المادَّةَ لذَّةَ الحركةِ، وإدراك الوجود، والتأثُّر به، والتأثير فيه، في مقابل ألَّا تكونَ هذه اللذَّةُ أبديَّةً، إرضاءً لإرادة الموت؛ لأنَّ الأحياء إذا بقوا أبدًا فسوف... فسوف يدركون الحقيقة التي احتجبت قبل البداية، وستظل حتى النهاية وراء الحجاب. الموتُ هو المقابل.

ابتسمتُ لأوَّلِ مرَّةٍ بعد طول تقطيبٍ، والسيَّارة تتحرَّك في بطءٍ داخل طابور الزحام، وحدَّثتني نفسي بأن أؤلف روايةً تكون فكرتها الرئيسية، هذه التي هبطت عليَّ من سماء الوحي. لكن... أفّ!

لم يُشر إليَّ أحدٌ بعد. تابعتُ التقدُّمَ البطيءَ بالسيَّارة في شارع (أبو قير) المزدحم كذهني. من الطريف أنَّ في باريس

شارعًا بنفس الاسم Rue d'Aboukir. أخبرني بذلك عمِّي ذاتَ يومٍ وهو يحكي لي تفاصيل تعرُّفه على محمود صبري صاحب دار النشر. ألم أقل لكَ إنه سافر في شبابِه إلى فرنسا؟! في الواقع هو كان يُسافِر في شبابه إلى أيِّ مكانٍ ليعملَ في أيَّةِ وظيفةٍ... إلى أيِّ مكانٍ في إطار الدول العربية. سَفْرَة باريس كانت عن طريق رئيسه في العمل في العراق. كان يثق فيه، ولذا أرسله إلى باريس لإحضار... لإحضار طلبية نبيذ بوردو! نبيذ بوردو الذي قال فيه نزار قباني:

نَبِيذُ بُوردُو الذِي أحْسُوهُ يَصْرَعُنِي
وَدِفْءُ صَـوْتِكِ لَا يُـبْقِي وَلَا يَـذَرُ

يبدو أنني لم أقل إن عمِّي كان يعمل في ملهًى ليليٍّ في (النجف)! أجل كان يعمل هنالك فترة، قال لي عنها أنها كانت من أجمل أيَّام حياتِه. أنا أعرف جيِّدًا ظروفَ العراق في عهد صدَّام (في الأوقاتِ التي لم يكن فيها مأخوذًا بلوثة أنه الرئيس الـمُؤمن!)، ولذا أستطيع أنْ أجزم أن (أجمل أيَّام حياتِه) تلك، كانت قِطَعًا من جنَّةِ المسلمين! والفضل طبعًا للكاوليَّات!

استفاد عمِّي كثيرًا من أسفاره (وليته لم يستفِدْ منها صداقةَ محمود صبري الذي فشل في هجرته غير المشروعة إلى فرنسا، وتسلَّق على عمِّي قليلًا هناك خلال أيام سفرته القصيرة، بنفاقٍ وَوُدٍّ زائفٍ خدعه، وصوَّر له به نفسه كمشروعِ صديقٍ مثالي. عليه ألف لعنةٍ وعلى داره الحقيرة). استفاد عمِّي مالًا وخبرةً. أبي كان دائمًا يحقد عليه لأنَّ وظيفته في شركة المياه لم تفلح في الارتقاء بمستواه الاجتماعي إلى مثل ما كان عليه عمِّي، فظلَّ طوال حياتِه يُبغِضه ويعامله بفتور، متمنِّيًا أنْ تأتيَهُ ثروةٌ من السَّماء، فتمتلئ بها حقيبته السوداء الكبيرة التي كان يحتفظ بها فوق دولاب غرفته ليضع فيها أغراضه متى قرَّر زيارة قريته بكوم حمادة.

بحذاء مقابر اللاتين، بعد يأسي من أنْ يستوقفَني أحد، برزت بغتةً ذراعٌ هزيلةٌ تلوِّح إليَّ، يحوطُها كمٌّ قميصٍ كاروه يغلبُ عليه اللونُ الكحلي، ويرتدي صاحبُها بنطالًا من الجينز أزرقَ فاتحًا، وكوتشي لونه أسود تتخلَّلُه أشرطة حمراء. اقتربتُ منه حتَّى توقَّفتُ بجانبه (تأكَّدتُ من أنَّه ليس أحدَ معارف

الماضي!). دنا من النافذة اليمنى، ومال نحوَها وهو يقول:

- فندق هيجسياس يا اسطى؟

لم يكن عندي علمٌ بوجودِ فندقٍ يحمل هذا الاسم. بسطتُ كفِّي أمامه (شكله برضه مش غريب عليَّ!) مُصرِّحًا بجهلي بوجهتِه، إلَّا أنه هتف في رجاء:

- هادِّيك عشرة جنيه.

- عارف السِّكَّة؟

- في شارع بورسعيد.

أشرتُ إليه بالركوب، ففتح الباب، وجلس على المقعد المجاور لي. انطلقتُ بالسيارة، وبدأ الرَّاديو يبثُّ أغنيةً لفريد الأطرش. أنا عارف شارع بورسعيد شبر شبر. زنقة زنقة. أوَليستْ مقابر الشاطبي الأثريَّة (مهبط وحيي) التي ذهبتُ إليها هذا الصباح، في ذلك الشارع؟!

19

شقَّ عليَّ أن أتكلَّف سؤالَه عن كُنهِ وجهتِه، غير أني تحايلتُ على المشقَّة بعد تحيُّر، واستطعتُ - والسيَّارة تسير في شارع شامپليون - أنْ أسألَه:

- هوّ صاحب الفندق ده راجل يوناني ولَّا إيه؟

ونظرتُ إليه بجانب عيني وأنا أسألُه، فألمتُ بقدرٍ من ملامحِهِ يسيرٍ، وتبينَتْ لي عِلَّةُ الألفةِ التي أحسستُها حين نطق بوجهته. المشهدُ الجانبيُّ لرأسِه يُشبهني إلى حدٍّ بعيدٍ. لقد اعتدتُ أنْ أُعجَبَ بأيِّ إنسانٍ - ذكرًا كان أم أنثى - يحمل ملمحًا منِّي؛ وليس هذا – في ظنِّي – ضربًا من النرجسية، بقدر ما هو أمرٌ خاضِعٌ لتدابير الفطرة الإنسانية. لكنِّي أُبغِض نفسي إذا زادتْ نسبةُ التشابه؛ فحينئذٍ تتجلَّى أمامي عيوبي كاملةً فتصدمني. وما ألـمَّتْ به عيناي حين نظرتُ إليه، بيَّن لي فيه تشابهًا كبيرًا (وإن كان إلى الأسوأ) معي. جلدُه ذابلٌ جاف،

ينضح كآبةً. خدُّه ملبَّدٌ بأخاديدَ كالتي بخديَّ، غير أنَّها أعمق وأقبح. الأنف...

التفتُّ إليه من جديد لأحثَّه على أنْ يُسمعَني جوابَه الذي تأخَّر، لكنني لم أكَدْ أُتِمُّ الالتفاتَ، حتَّى قال باقتضابٍ (*صوتُه حادٌّ كصوتي!*):

- لأ مش يوناني.

وأطبق شفتيه، ولم أعقِّب. أقبضَتْني إجابتُه المقتضَبة التي لا يُقصَدُ بمثلِها إلَّا غلقُ سُبُل فتح أيِّ حوار. أنا أعرف هذه الطريقة جيِّدًا من كثرة ما تقلَّب عليَّ من زبائن، لا يحبُّون محاورة سائق التاكسي، إمَّا تكبُّرًا، وإمَّا إراحةً للأعصاب من الصُّداع، وإمَّا خوفًا من أنْ يكون السائقُ مُرشِدًا مثلًا!

ظلَّلَني وإيَّاه الصَّمتُ طوال الرحلة القصيرة، وبجوار إحدى بنايات الصَّف الأيمن بشارع بورسعيد، أشار قائلًا:

- هانزل هنا.

فركنتُ السيارة بجوار البناية (على واجهتِها لافتة مُضيئة

تحمل حروفًا يونانيَّةً، عرَفْتُ فيما بعدُ أنَّها على هذه الصُّورة: Ξενοδοχείο Ηγησίας). وقبل أنْ يترجَّل، مدَّ إليَّ يده اليمنى بخمسين جنيهًا. استعجبتُ قليلًا من أنَّ في يده أربع أصابع فقط! استنتجتُ ببساطة أنَّ الخنصر مقطوع! لم آخذ من يدِه رباعيَّة الأصابع ورقة الخمسين، وسألتُه عن فكَّة (برغم أنَّ معي فوق الأربعين جنيهًا بمحفظتي! شُغل سوَّاقين بقى!)، فارتبك، ومدَّ يده في كلِّ جيوبِه متوتِّرًا، ونِدِمتُ على سؤالي الذي مضى، لـمَّا أبصرتُ تشتُّتَه. يخرج جنيهين من هنا. نصفَيْ جنيه من هناك. يبحث عن خمسة جنيهات. يجدها. وفي النهاية، أتمَّ المبلغ، وأعطاني إيَّاه، ورحل سادرًا في لخبطتِه العجيبة. إيه التوهان ده؟!

فارقتُ شارع بورسعيد من طريقٍ جانبيٍّ ضيِّق، أفضى بي إلى شارع الترام، وصورةُ الشابِّ الـمُرتبِك لا تزال تبذر في ذهني خيالاتٍ وتساؤلاتٍ، لم أكن أدري أنَّها ستكون شغلي الشاغل خلال اليومين القادمين!

20

عند محطة ترام الجامعة التي يعلوها الطريق الأسفلتي بنحو عشرة أمتار، ويحوطها من الجانبين سوران عاليان، استوقفتني ثلاث ماليزيات.

ليست فِراستي دقيقةً إلى الحدِّ الذي أعيِّنُ فيه جنسيَّةَ أيٍّ أجنبيٍّ من الوهلة الأولى بلا مِراء؛ بل ذلك راجع إلى اطِّراد وجود الطلبة الماليزيين في الإسكندرية حتى صاروا أمرًا واقعًا. الإناثُ منهن ذواتُ مظهرٍ يُمَيِّزه احتشامُ الثياب؛ فأغلبهن يرتدين الخمار الكبير الذي يُدنى على الصَّدر، والعباءة المنسوجة بقماش مرسومة عليه زهورٌ كثيرةٌ. أقول (أغلبهن) لأنَّ مخالطتهن المصريَّاتِ بدأتْ تُبدِّل طباعَ بعضِهن التي جُبِلنْ عليها، فبدأن يقلِّدنهنَّ في ارتداء الملابس المثيرة، وطرائق إحاطة الرأس بالإيشارب!

قلن في نفسٍ واحدٍ، وأنا أقترب منهن:

- مُوَا. صا؟

أومأتُ إليهنَّ مُوافِقًا. (مُوَا. صا) هي الطريقة المتشرِّبة بالعُجمة التي ينطق (المواساة) بها الماليزيون الذين يدرسون في كلية الطب (طلَّاب الفرق الثلاث الأولى). ولعَمري إنَّ في لُكنتِهنَّ ظرفًا. تذكَّرتُ حكايةً كنتُ قد قرأتُها في كتاب (البيان والتبيين) لأبي عثمان عمرو بن بحر (عيب قوي نقول عليه الجاحظ زيّ المغفَّل حسن أبو طالب)، عن شاعرٍ قال في أمِّ أحدِ أبنائه (ذاكرًا لُكنتَها):

أَوَّلُ مَا أَسْمَعُ مِنْهَا فِي السَّحَرْ
تَذْكِيرُهَا الأُنْثَى وَتَأْنِيثُ الذَّكَرْ
وَالسَّوْأَةُ السَّوْآءُ فِي ذِكْرِ القَمَرْ

فهي حين تنطق (القَمَر)، تستبدل بالقاف كافًا، فتجعله (الكَمَر). والكَمَر جمع الكَمَرَة، وهي حَشَفَةُ القضيب!

المهم. ركبت اثنتان منهن في الأريكة الخلفية، والثالثة ركبت بجواري، وانطلقتُ بهنَّ قاصِدًا إلى الـمُواساة.

تندَّرن قليلًا بلغتِهن الآسيويَّة (وإشارات أصابعهن) على رقم السيارة المكتوب على التابلو، وعلى ظهر الكرسيين الأماميين، فابتسمتُ، وتذكَّرتُ يمنى. وفي منتصف الطريق، مالت التي بجواري إلى الأمام، ومدَّت يدها إلى أسفل لحظةً، بعدها ارتدَّتْ ممسكةً محفظةً سوداء... بالطبع لا تخصُّني. محفظتي برتقالية. إذًا.

قالتْ لي وهي تعطيني إياها:

- دُمْبِت.

ثمَّ مبيِّنةً بالإنجليزية:

- Wallet.

أخذتُها منها (تذكَّرت ارتباك الزبون الماضي)، وفتحتُها بحذرٍ متابعًا الطريق، ونظرتُ فيها سريعًا. مثلما توقَّعتُ. صورة الفتى الذي صحبته إلى فندق هيجسياس، تحتلُّ أعلى الجانب الأيسر من بطاقتِه الشَّخصيَّة التي يشف عنها الستر البلاستيكي المغطَّاة به بطانة الدَّفة اليسرى من المحفظة.

شكرتُها بالإنجليزية، وقلتُ لها إنني سأعيدها إلى صاحبِها؛ وحقًّا لم أكن واثقًا من مقدرتي على هذا، ولم أكن أعلم - ومباني المواساة تقترب - أنَّ هذه المحفظة ستكون سببَ كثيرٍ من الأحداث التي ستغيِّر مجرى حياتي تمامًا.

21

لم أعُدْ إلى الفندق الذي أوصلتُ الفتى فاقدَ محفظتِه إليه، ولا ذهبتُ بها إلى أقرب قسم شرطة من شارع بورسعيد؛ فقد خَلَتْ نفسي من أيةِ رغبةٍ حقيقيَّةٍ في التعامل معَه مرَّة أخرى (ولن أُقْدِم طبعًا على دخول قسم شرطة بكامل قواي العقليَّة!). كما أنَّ العمل لم يبسط حيالي أية فسحةٍ من وقتٍ، أستطيع خلالها أن أرجِعَ المحفظة إليه. كلما توقَّفتُ بالسيَّارة على جانب الطريق ليترجَّل راكبٌ، هُرِع إليَّ شخصٌ منتظِرٌ يسألُني أن أقِلَّه. وظلَّت الحال كذلك. كلٌّ في ذيل الآخر، بدايةً من الماليزيَّات الثلاث، حتَّى الساعة الثانية والثلث التي يلثُمُها الآن عقربا ساعة يدي. عملُ الخميس شاقٌّ، وشقاؤه منسٍ (*حقًّا؟!*).

السَّماء لم تزل مُلَبَّدةً، والهواء بارد، والناس أمامي يُسرعون في مشيهم، وأنا جالسٌ في السيارة التي أوقفتُها بجوار الرَّصيف الجانبي بشارع المشير أحمد إسماعيل بسيدي جابر.

نظرتُ إلى صورتي في المرآة. عيناي غير كثيفتي الرموش تحملقان فيَّ. على حاجبي الأيسر خيطٌ قطنيٌّ خفيف، أمسكتُه بإصبعي، ورميته من النافذة. الإرهاقُ بادٍ عليَّ، وجميع مشاكل اليوم تصرخُ في ملامحي، بدايةً من تحطم شاشة الموبايل، وانتهاءً بخبر الشيخ ياسر. نفضتُ رأسي بعنفٍ كعادتي حين أحاول إسقاط ذكرى سيئة منه. نخزني طيفُ صُداع، ما لبث أن انحسر، واعدًا إيَّاي بزيارةٍ مسائيةٍ. تذكَّرتُ المحفظةَ بَغتةً. أخرجتُها من التابلوه الذي كنت قد وضعتها فيه. فتحتُها. الاسم في البطاقة رأفت عبد الله الشيتاني. طالب. أرقام كثيرة تنتهي بـ 2890317! بحثتُ فيها قليلًا. لم أجد فيها أيَّ أموال. يبدو أنَّه يحتفظ بنقوده في جيوبه. أدخلتُ أصابعي في أغوارِها، فأخرجتُ بعض الكروت. منها كارت طبيب نفسي اسمه (حاتم طبوزاده). طبوزاده؟! دا مِيَّة في الـمِيَّة تُركي أبًّا عن جد! ووجدتُ كروتًا لشركات كمبيوتر، ومطاعم، ومحال أدوات كهربائية. أرجعتُ كلَّ شيءٍ إلى مكانِه، ووضعتُ المحفظة في حقيبتي. حتمًا سأعيدها إليه، لكن ليس اليوم. لستُ في حالةٍ

نفسيَّةٍ تسمح بمثل هذه الأمور، ويكفيني ما أنا فيه من عبءٍ نفسيٍّ لا يُحتمل، ولا دواء له إلَّا القودكا.

بعد لحظاتٍ وجدتُ عجوزًا مسيحيَّةً تقترب من النافذة (*تذكَّرتُ يمنى*)، وعقدُها الذي يتوسَّطه صليبٌ يتأرجح فوق صدرها المكشوف. قالتْ بصوتٍ متحشرج:

- سموحة؟!

فتحرَّك شيءٌ منِّي. أشرتُ إليها أن اركبي، ثم انطلقتُ بها، أصلَى نارَ الزِّحام، حتَّى اقتربنا من سموحة. سألتُها عن وجهتِها بدقَّة، فقالت: مول زهران. فتحرَّك منِّي شيءٌ آخر! حين أصبحنا بجواره، ترجَّلَتْ. أغلقت الباب، ومن النافذة اليمنى مدَّت يدها بورقةٍ بعشرة جنيهات (ما أكثرَ ما يتحرَّكُ فيَّ الآن!). هممتُ بأنْ أردَّ إليها جنيهين، فقالت بابتسامةٍ ودود:

- لا، خلِّي الباقي.

شكرتُها، وتمطَّيتُ حين ولَّتْني ظهرَها، فسمعتُ صريرَ فقراتي. الساعة الآن الثالثة إلا الثلث. لا رغبة عندي في مواصلة

العمل. بعثتُ رسالةً لحسام الجعَّار أطلب منه فيها أنْ يمرَّ عليَّ في سموحة، وأنني سأكون بمطعم (جاد)، ليأخذ السيارة، وحصَّة الشيخ ياسر، عن عملي لأربع ساعات. لا أريد أنْ أسمع صوت حسام مرَّةً أخرى، ولا أنْ أرى رأسَه الكبير، وجُرح جبهتِه الـمُرْعِب (كجُرح عُمَر بن عبد العزيز!)، وزبيبة الصلاة الشائهة. ولا أريد أنْ أرى كذلك الشيخ ياسر. خرجتُ من السيَّارة برفقة حقيبتي. أغلقتُ الباب. مشيتُ صوبَ مطعم (جاد) بخُطًى بطيئةٍ، وأنا أتأمَّل الأجساد الفائرة والذاوية حولي. وذهني مشغولٌ بجنونٍ لا يُورِثُ الـمَرْءَ مثلَه إلَّا شيءٌ واحدٌ، تقيم عِلَّتُه ببنايةٍ مررتُ بها أثناء سيري، وأطلتُ إلى مدخلِها (وإلى بوَّابها) النَّظر!

22

وراء فنجان كابوتشينو، موضوع على طاولةٍ مربَّعة، فوقها خفوتٌ يملأ المكان، يُحاكي خفوتَ السَّماء بالخارج، كنتُ جالسًا. الطاولات تجمع العاشقين والخاطِبين والمصادِقين والمخادِنين والمتلاعِبين والجائعين. وحدي أنا على طاولةٍ دون رفيق! وهل كان لي في حياتي رفيق إلَّا حبيبي طارق، وجنيَّة الأحلام يمنى؟ طارق صديق وحبيب، والصَّداقة لا تتمُّ إلَّا إذا امتزجتْ بحبٍّ لا شِركَ فيه، ولا حَيَدانَ عنه. وأنا أحبُّ ملامحَه، صوتَه، عناقَه الذي صار يبتدرُني به منذ اللقاء الثالث، قُبلتيه على خدَّيَّ، عزفَه، غناءَه، ثقافتَه، رائحتَه الجميلة. لا أعرف من أين يُحضِر عطرَه، لكنَّه في رأيي أجملُ عِطرٍ شممتُه في حياتي. أحبُّه مثلما أحب يمنى. (رشفة من الفنجان. ناقص سُكَّر. أفرغتُ فيه كيسَ سُكَّر صغيرًا، وقلَّبتُ بالملعقة. رشفة أخرى). برُغم أنَّه أسلمني إلى ناقدٍ أهانني، إلَّا أنني - كما أعتقد - لا أحسبه إلَّا مخدوعًا فيه، وعلى أيَّةِ حالٍ سوف يكون بيننا هذه

الليلةَ حديثٌ طويلٌ.

على مقربةٍ، مجموعةٌ من فتيات، إحداهنَّ تُشبه عيناها عينَيْ يمنى! آه يا يمنى. لا أدري لماذا ألمَّ بي اليومَ وأنا في خَلوةِ المقابر - وقبل ذلك وأنا في الترام - خاطرُ الزَّواج الـمُرجِف للقلب! لا أحبُّ أنْ أتزوَّج، لأسبابٍ عدَّة، أقواها أنني لا أريدُ للحياةِ أن تتكرَّر! ليستْ مصرُ جنَّةً. ليس العالمُ بأكملِهِ جَنَّةً، فأزج إليه بإنسانٍ جديدٍ يتجرَّع فيه مثلَ ما تجرَّعتُه من عذاب. هناك احتمال أنْ يتكرَّر وجودي إذا متُّ ولي ذُرِّيَّةٌ يحملون صفاتي الوراثية! وقد يكون هذا الاحتمالُ باطلًا. حياتي ليستْ جميلةً إلى الدَّرجةِ التي أرغب معَها أن أعيدَها مرَّةً أخرى بعد موتي. لا أريد أطفالًا. الأطفال والعَرَق هم مخلَّفاتُ لذَّةِ الجِماع، وأنا غاية مُرادي أنْ آكلَ وأشرب ما أريد دون برازٍ ألِدُه أو بول! ولأنَّ يمنى ليستْ عاهِرةً (ولا متحرِّرة جنسيًّا في ظنِّي، ولا حتَّى تعرفني معرفةً وثيقةً!)، فالسبيلُ الوحيدُ لعناقِها، واشتمام إبطيها الـمُخْمَلِيَّين الثائرين بالفيرومونات الـمُدَوِّخة، ولثم نهديها المتكوِّرين العاليين كأنَّهما يُرضِعان النجوم (*أين قرأتُ*

هذا التعبير؟!)، وتقبيل شفتيها البضَّتين، وعينيها الروسيتين، والإبحار فوق أديم خصرِها الزجاجي، وإلقاء مِرساة شهوتي في أعماقها؛ السبيلُ الوحيدُ لكل هذه الأمور الجنونية هو الزَّواج. لو استطعتُ أنْ أنالَ منها مأربي، وأنْ أُبقيَها معي طوال العمر صديقةً ورفيقةَ فراشٍ دون زواج، لحققتُ أعظم بغيَّة. لكنَّ أخلاقها – على أغلب الظن – لا تسمح. لكنِّي أيضًا لا أحب أن أتزوَّج. أوَليس الزَّواجُ على سنة الله ورسوله؟! أنا غيرُ مؤمنٍ بأيٍّ من هذا! هل شرَّع الله (الذي يُفترض أنه خالقُ الكون وما فيه من كائناتٍ) سُنَّةً لتزاوج القطط والكلاب وأفراس النَّهر، وَهُمْ من خَلْقِه؟! وهل بين الإنسان وأولئك أي فرق؟! طارق يوافقني تمامًا على هذه الفكرة. الحُبُّ مفتاح الارتباط، والارتباط المثالي هو الذي لا أبناءَ فيه، ولا يُلِحُّ فيه حضورُ الزوج والزوجة الدائم، بعضهم إزاء بعض، في مكانٍ واحدٍ، على طبيعة الإنسان المحبَّة للتغيير والتجديد، والتي سيُرهقها – لا شكَّ – ذلك الإلحاح. هذا كفيلٌ بإلقاء حاجز الملل المشوِّه بين كليهما. لكنْ هل هناك عن الزَّواج بديل؟ بدأتُ

أتخيَّل نفسي في موقف التقدُّم لطلب يدِ الأميرة الساحرة. أدنو من بوابة البناية، وفي يدي اليمنى باقة ورد، وفي اليُسرى حقيبتي السَّوداء. ألقي السلام على البوَّاب الجالس على كرسيٍّ خشبيٍّ، ساكنًا كوثنٍ عتيقٍ، لا يَدُلُّ على كونِهِ حيًّا إلَّا الدُّخانُ الذي يفارق أنفه وسيجارته. يردُّ مسدِّدًا إليَّ عينيه الكارهتين. أسأله عن الطابق الذي تسكن فيه الدكتورة يمنى، فيتساءل مرتابًا عن سبب السُّؤال، وهو يدقِّق في باقة الورد، فأجيبه بأنَّني أريدُ مقابلةَ والدِها في موضوع مهم، فيحدِجني باحتقارٍ فاطنًا بعبقريَّته النادرة إلى الغرض من مطلبي، ويسحب نفسًا جديدًا من سيجارته، ويُشير إليَّ بالولوج ناطقًا برُتبةِ الطابق، فأتجاوزه، وأصعد على الدَّرَجِ ببطءٍ لكيلا تخونني أنفاسي حين ألتقي والد يمنى، وعند الطابق المنشود، أطرُق باب الهَوَى. ولِمَ أطرقه؟ ألن يكون بجنبه مِفتاحُ جَرسٍ؟! أضغط الـمِفتاح، فتغرِّد العصافير، وتمرُّ ثوانٍ، ثم ينفتح الباب عن وجهٍ. ليس وجه يمنى، ولا وجه أبيها، بل عن وجهٍ أتخيَّلُهُ أمردَ، جعلتُه لأخيها الصغير! أسأله بهدوء عن أبيه الذي لا أعرف اسمه، فيولِّيني ظهره، ويترامى

إليَّ نداؤه أباه. بابا بابا. فيه حدّ عايز حضرتك ع الباب. فيقبل مسرِعًا والد يمنى، وفي وجهه مثل ما حمل وجهُ ابنِه من تساؤلٍ، وأتخيل أنَّ في وجهِهِ أيضًا وسامةً وانتظامًا أورث ابنته إيَّاهما. أسأله أن أتحدَّث معه في موضوع مهم، فيوسع فرجةَ الباب. أدلِف، ويقودني إلى غرفة الضيوف (أم إلى الصالة؟!)، وأضع باقة الورد على خزانةٍ في الطريق، وأنا أتمنَّى أن يُماثل منطقُ والد يمنى منطقَ أبي بشأن البنات، وأن تكون يمنى مَحْضَ (شخّة صُبح) أخرى! أجلس على أحد مقاعد الأنتريه، ويجلس حِيالي، فلا أتردَّد في عَرض طلبي، فما إنْ أُنْهِي قولي، حتَّى تنفرج شفتاه كشَفَتَيْ تمثال الإلـٰه سيرابيس الموجود بمتحف مكتبة الإسكندرية، فكأنَّه يُحِسُّ الصَّدمةَ من جُرأتي التي تقشعِرُّ لها الجبال، وتتبوَّل خشيةً منها الغيومُ في سراويلها! ويقول بعد هنيهةِ صمتٍ مرتبكًا أنه لا يدري، أو أي شيءٍ آخر، ثم يستعيد رباطة جأشِه، ويقول إنَّ الأعراف والتقاليد تُحتِّم أن يحضُر الخاطبُ مع أهلِه، وإنَّها تُحتِّم أيضًا أنْ يكون قبل لقاءٍ كهذا موعدٌ محدَّدٌ مسبقًا؛ فأقول إنَّ أبى مُتوفًّى، وإن عمِّى مثله، وإنَّ

والدتي مريضة؛ فيهز رأسه متوتِّرًا، ويسألني عن الطريقة التي عَرَفتُ بها يمنى؛ فأحكي له عن ندوة كلية الصيدلة الشعرية، وعن الصُّدفة التي جعلتني ألتقيها في التاكسي؛ فيتعجَّب من كلمة التاكسي، ويسألني عن عملي؛ فأقول له متراجِعًا في مقعدي بكبرياء إنني أديب، وإنَّ لي روايتين، وإنني قررتُ التفرُّغ قبل سنتين للأدب، فتركتُ كلية الصيدلة، وأصبحتُ أعمل على تاكسي وأن الشَّـ... فيقاطعني محتدًّا وهو يقول مستنكرًا أنني - وفق ما أقول - (سوَّاق معاه مؤهِّل ثانوية عامَّة)؛ فأقول بشمم إنني أديب متفرِّغ، وإن التاكسي شيءٌ يُساعدني على التفرُّغ؛ فيقول هادئًا بنبرةٍ كنبرةِ الناقد أنَّ ابنته مُعيدة في كلية الصَّيدلة، وأنني سوَّاق تاكسي و... فأقاطعه مُغالبًا الانفجار قائلًا إنني أ.د.ي.ي.ي.ي.ي.ب؛ فيتساءل ساخِرًا عن معنى (أديب)، ويُصرِّحُ بأنَّه لا يعلم أنَّ في الوجود مهنةً اسمها (أديب)، وأنَّ الأدبَ هواية، وأنَّه لم يفهم من كلامي إلَّا أنني سوَّاق؛ فأقول إنَّ الأدب رسالة سامية، وأنَّ ارتباط ابنتِه بأديبٍ شرفٌ لا يُطاوله شرفٌ؛ فيقول غاضبًا أنَّ

ابنتَه – بما وصلتْ إليه – هي الشرف الذي يتمنَّاه أعظمُ الناس قدرًا وأوفرُهم ثروةً، ويُردف بحزمٍ أنَّ الكلام انتهى، فتتبعثر كرامتي، وأقول محاولًا رَدَّ قراره الـمُجحف إنني أعشق يُمنى، وأنه إذا سألها عن رأيِها، فإنها ستوافق دون شك؛ فيقول وهو ينهض أنَّ ابنته نفسها تستنكف أن يكون مصيرها الزواج بسوَّاق، ويردف في كبرٍ (انتَ معطَّلني وانا عندي مشاغل. مش كلّ الناس فاضيين...)، ويبتر عبارته، فأكملها في ذهني آسِفًا... (زيَّك)! فأنهض بصعوبةٍ، ودماغي تدق فيه طبول جنائزية، يبثها فيه قلبي اللاجب. وقبل أنْ أتَّجِه صوب باب الشَّقة، أصيح باسم يُمنى، مرَّةً بعد مرَّةٍ، وأبوها يُحاول منعي، لكنه يفشل، وتظهر يمنى من إحدى الحجرات، مُرتديةً بيجامةً شتويَّةً حمراء، وشعرها الناعم اللامع منسدل على كتفيها، ويسير مع منحدرَيْ صدرها اللذين يبرزان كرَبْوَتَين من تحت بيجامتها، وتنطبع حلمتاهما الدقيقتان على النسيج الرقيق، فأقول لها مستجدِيًا أنني أحبُّها أكثر من نفسي، وأنَّني سألقي نفسي أمام الترام لو لم ترضَ عنِّي، وضَنَّتْ عليَّ بموافقتِها التي ستهبني ألفَ حياةٍ ممَّا

يعدُّ البشر؛ فترفع رأسَها في كبرياء، وتقول أنَّها سمعتْ الحوار كاملًا، وأنَّ رأيَها يوافق تمامًا رأيَ أبيها، وأنَّها لن تتزوَّج أبدًا بسوَّاق، وحتَّى لو كنتُ أديبًا، فإنَّها لا تقبل أديبًا، كتب روايةً عنوانها: كروان بثلاثة أجنحة... أولويز بالأجنحة... ثم تضحك كما كانت تضحك أمس، و...

أحححححه

همستُ بها في سرِّي، معترضًا على ذلك الخيال المريض الذي يُشبه الرَّوْث! لم يسترعِ ذلك انتباه أحد. أحَّى! إيه الكلام الفاضي اللي دماغي عمَّالة تطرطره ده؟!

أعدتُ الفنجانَ إلى شفتيَّ. القهوة بردت. شربتُ كُلَّ ما تبقَّى دفعةً واحدةً، وأنا ألعن الجزءَ الرِّوائيَّ من عقلي الذي يأبى إلَّا أنْ يُفرِط في الخيال حين يعرض له أيُّ أمرٍ، فيضع دائمًا (العُقدةَ) نصبَ أعصابه. لا أظنني أصلًا مُقْدِمًا على فعل هذا. لا بد وأن أحاول مع ربَّةِ الحُسنِ أوَّلًا قبل أيِّ إجراءٍ جنوني. زواج؟! ما هذا الجنون؟

نهضتُ من مكاني، وذهبتُ إلى الحمَّام لأنَّ المياه التي شربتُها في الصَّباحِ تُلِحُّ على مثانتي من مدَّةٍ طويلةٍ.

وأنا أغلق السوستة داخل إحدى الكبائن، رنَّ موبايلي. أنهيتُ غلق السوستة وهو يرن، وغسلت يدي وهو يرن، وفي النهاية، أخرجتُه من جيب البنطال. حسام. لا شكَّ في أنَّه الآن خارج المطعم. كنسلتُ عليه. حقيقةً لا أريد أن أسمع صوتَه، وحسبي أنني سألقاه بعد قليلٍ بالخارج، وأعطيه المفتاح. خرجتُ من المطعم بعد أن دفعتُ الحساب. تلفَّتُّ حولي... لا أثرَ لحسام!

23

مش مصيبة يعني انّ خلقة حسام مش باينة في الشارع. عادي يعني. عن دين أمُّه ما ظهر! بسّ. دا لسّه مِتِّصِل بيَّا! أخرجتُ الموبايل لأكلِّمه، وما إنْ بدأتُ أبحث عن اسمِه، حتَّى سمِعتُ نداءً بصوتٍ أقرع (مَعْدِنيِّ النبرة). جاباييير. أغلقت الموبايل وأعدته إلى جيبي، والتفتُّ إلى الصَّوت.

الرأس الكبير ظاهِرٌ في الأفق. يزداد ضخامةً باقترابِ صاحبه. تبدو على مظهره فوضى أظنُّ سببها مبرَّرًا. على قميصِه الشتويِّ الفاتح بقعة عسليَّة، أرجو ألَّا يكون ظنِّي بشأنِها صحيحًا! اقتربَ ووجهه الأبيض - برغم الإرهاق - يُظهِرُ ارتياحًا وسعادةً. سلَّمْتُ عليه، وقلتُ له ما يُقال في مناسبات الميلاد، فأجابني مُنشَرِحًا، وكأنَّه نَسِيَ ما أغرقتُه به من صياح حين هاتفني. أعطيتُه المفتاح، ونصيب الشيخ ياسر، واستأذنتُ منه لأذهب إلى... لا أدرى إلى أيِّ مكانٍ أذهب! لكن...

تذكَّرتُ بَغتةً وأنا أتابعُ تضاؤلَ الرأسِ الضَّخم، مشاعري تُجاه يمنى، ودُنوَّ مقامِها، فبزغتْ في ذهني فِكرةٌ مجنونةٌ! ومعنى بزوغ فِكرَةٍ مجنونةٍ في ذهني، أنني – دون شكٍّ – سوف أنفِّذها حالًا بلا تَمَهُّل.

على مؤخّرة سيَّارةٍ قريبةٍ من طراز (لانسر)، وضعتُ حقيبتي (بحذرٍ لكيلا يصرخ جهاز إنذار قد يكون بها)، وأخرجتُ منها دفتري الصغير. فتحتُه، وبدأتُ أكتب بقلمي الروترنج على إحدى أوراقه هذه الكلمات:

Salut,

J’espère vous voir à six heures ce soir au café (élite), et j'attendrai.

Une fenêtre sans cottage

ثمَّ نزعتُ الورقة من الدفتر، وطويتُها، وسرتُ حتَّى وصلتُ إلى البناية التي تُقيم بها يمنى، وأعطيتُ البوَّاب الورقة المطويَّة، وطلبتُ منه أنْ يُسلِّمَها لها. وانصرفتُ مودِّعًا بنظراتِه المتشككة (يبدو أن خيالي في مطعم جاد كان مُصيبًا تمامًا بشأنِه!)، وأنا أتمنَّى أنْ تنجحَ حيلتي، وأنْ تُلبِّيَ يمنى دعوتي هذا

المساء. قصدتُ من كتابتي هذه الدعوةَ بالفرنسية (التي كانتْ لغتي الأجنبية الثانية في الثانوية العامة)، ألَّا يستطيع البواب قراءتها وفهمها (قد يكون جاهلًا أصلًا بقراءة اللغة العربية!)، وحتى تكون غيرَ مفهومةٍ لمن قد تصل إليه بطريق الخطأ أو الوشاية (أبيها مثلًا). لا أحسب أباها (الذي لا أعرفه) يفهم الفرنسية. لعلَّه نَسِيَها مثلًا، أو لم يتعلَّمْها أصلًا. الفرنسية ليس لها رواج الإنجليزية في مصر، كما أنَّ أباها (الذي هو دون شكٍّ كبير السن)، لنْ يجول بخَلَدِه أنْ يبحثَ عن معنى الكلام في google translate مثلًا؛ فأغلب كبار السن في مصر لا قِبَل لهم بالتعامل مع الابتكارات الحديثة! كما أنني لم أوقِّع الرسالة باسمي، بل بعنوان روايتي (نافذة بلا كُوخ) مترجَمًا إلى الفرنسيَّة، ويمنى عندها بالتأكيد روايتاي. لا أعرف إنْ كانت على درايةٍ بالفرنسيةِ أم لا، لكنَّ فضولها حتمًا سيدفعُها إلى البحث عن ترجمة الكلام، وحتمًا ستلبِّي دعوتي في تمام السادسة في كافيه إيليت. ابتسمتُ شاعرًا بروعة الفكرة المجنونة التي نفَّذتُها. وحدها المغامرة تقدر أنْ تنفخَ رُوح السعادة في جيفة

المكتئب، ولا غيرَها يـُمَنِّي التَّعِسَ بأنَّ في يومٍ جديدٍ من الحياةِ فَرَجًا يُخلِّصه من أسباب تعاسته... أتمنَّى!

***

عَيْنَاكِ
وَالأُفُقُ الـمُذَهَّبُ
وَانْكِسَارُ الـمَوْجِ فَوْقَ الشَّاطِئِ الهَيْمَانِ
وَالزَّبَدُ الكَسُول...
مَاذَا أَقُول؟!

(من الروسيات)

24

هيجِسياس (Hegesias, Ηγησίας) القورينائي، فيلسوف هيدوني الاتجاه، ادَّعى أنَّ السَّعادة أمرٌ يستحيل أن يبلغَه الإنسان، وأنَّ الهدفَ من الحياةِ محاولةُ تجنُّبِ الألم فحسب، وأنَّ المعاييرَ التقليديةَ الشائعةَ عند الناس والتي ينقسمون استنادًا إليها، كالغِنَى والفقر، والحريَّة والعبوديَّة، بعضها صنو بعض، ولا فرق بين أحدها والآخر. ويقول شيشرون خطيب روما الأشهر إن لهيجِسياس كتابًا عنوانه: (الموت جوعًا)، يتعرَّض فيه لرجلٍ يعزم على أن يُجيع نفسَه حتى الموت ليُظهِرَ لأصحابِهِ أنه يَنفر من الحياة. ووصف هيجسياس في كتابه قتامة البؤس البشري بصورةٍ أقنعَتْ كثيرًا من الناس الذين عاصروه (وأغلبهم شباب) بأن في الموت ما يجعله ملاذًا للإنسان، فحاولوا لذلك الانتحار. ولهذا السبب، مُنع الكتاب من التداول في الإسكندرية، وطُرِدَ منها هيجِسياس في عهد الملك بطليموس الثاني (285–246 ق.م.).

هذا ما اتَّفقَتْ لي معرفتُه عن المدعو هيجِسياس (الذي يحمل اسمَه الفندقُ الذي أوصلتُ إليه الفتى فاقدَ محفظته)، بعدَ جَوْلَةٍ طَوِيلَةٍ في مواقع الإنترنت (الإنجليزية). كنتُ جالسًا حيالَ جهازٍ متهالِكٍ في سايبر قريب من مول زهران، بعدَ أنْ فكَّرتُ في وسيلةٍ لتزجية الوقت ما بين الثالثة عصرًا، وموعد اللقاء الذي كتبتُه ليمنى في الورقة. جميع مستأجري الأجهزة من حولي إما متصفِّحون للفيس بوك (الذي أراه أثقلَ ظِلًّا من الـمُقطَّم)، وإمَّا مشاهدون لڤيديوهات يوتيوب (التي أغلبها مقتطفات من برامج حواريَّة لا أبغض عندي منها، وتهوى مُرشدتا البيت متابعتها على التليڤزيون الموجود بالصالة). وأنا وحدي تحت أضواء السايبر الخافتة، أبحثُ عن معلوماتٍ فلسفيَّةٍ ذات خطر!

حين بحثتُ عن فندق يحمل اسم هيجِسياس، لم أجد، فرجَّحتُ أنَّه فندق متأخِّر في التَّصنيف (نجمة أو نجمتان)، وأنَّه لم يرتقِ إلى أنْ يكون في النت أخبارٌ عنه. لكن... أيُّ إنسانٍ يهجر جميع الأسماء التي يمكن أن يحملها فندق، ويجد بغيته في

اسم فيلسوف قورينائي كان كل همه دعوة الناس إلى الانتحار؟! الانتحار. الوحش المتربِّص بي، الذي أحجزه وراء بابٍ بذهني سميك، وأخشى كثيرًا خروجه. إنَّ التفكير في الانتحار يرجع إلى بداية سِنِي الـمُراهقة. ذات صباح بعيدٍ صحوتُ بعد أنْ أحسستُ بانقباضاتٍ عجيبةٍ في عُضوي، خلَّفَتْ سائلًا أبيضَ راغيًا نفاذَ الرَّائحة، فرجَّحتُ أنني أصِبتُ بداءٍ تناسُليٍّ لا شفاءَ منه! ظلِلْتُ مُكتئبًا حتَّى عَرَفْتُ بعدَ كثيرٍ من الأفكارِ السوداوية، والبحثِ في كتبٍ سطحيةٍ بخيلةٍ بالمعلومات، والتأمُّلِ المستفيض، أنَّ لجسدِ الإنسانِ إرادتَه التي هي أقوى من أيةِ مُحاولةٍ عقليةٍ لتطويعه، وأنَّ غريزةَ البقاءِ لا تخضع لأيِّ عُرْفٍ اجتماعيٍّ أو دينٍ أو مذهبٍ فلسفيٍّ. الجسدُ يُريد أنْ يتكاثر، وأيُّ عقيدةٍ تقِفُ في سبيلِ إرادة الجسد، سوف يقذِفُ عليها الجسدُ مَنِيَّه (لو كان لِذكرٍ)، أو يحيضُ عليها (لو كان لأنثى). وعرفتُ أنَّ أهمَّ سببٍ لشقاءِ الإنسان هو عدم موافقة عقيدتِه لطبيعتِه؛ ولهذا كثيرًا ما يضنيه جهلُه بالأمور التي تعرض له، مُخالِفةً لِمَا أقنع به عقلَه. راودتني رغبةُ الانتحارِ مرةً أخرى عندما رأيتُ

أبي يحرث أمي. وراودتني مرَّةً ثالثةً (كانت الأقوى) حين رسبت، ورابعةً حين مات عمِّي، وخامسةً هذا اليوم، وأنا خارجٌ من غرفةِ الناقد. لكنَّ أيًّا من هذه الرغبات لم يرتقِ إلى مرحلة الـمُحاولة الجادَّة. لا أدري لماذا! ربَّما كانت جُرعة الإخفاق غيرَ كافية. لكنَّني موقنٌ بأنَّني إذا استمرَّ قطارُ الصَّدمات (النَّشِط جدًّا منذ أمسِ) في دَعْسي بهذا الإصرار، لا أستبعد أن يكسِر الوحشُ البابَ، ويتمكَّن منِّي، وأنا واثقٌ من هذا. إن جيناتِ الانتحارِ تومِضُ في أنويةِ خلاياي كمُجَسَّماتٍ هولوجراميةٍ، جميعُها يحملُ ملامِحَ أبي الذي أورثني هذه الجيناتِ المدمِّرةَ. أولم ينتحر هو من قبلي؟ أجل انتحر. لكنه فضَّل الانتحارَ البطيءَ لأنه جبانٌ، أما أنا... هل أنا أشجعُ منه؟! لا أدري! لا معنى للحياة بدون خمر النجاح التي تسكرنا، فتعمينا عن مواطن العناء والقسوة المكتظَّة بها كلُّ دروبها، فإذا عزَّت، حاصرت العيونَ أماراتُ مرارة العَيْش، وصرنا لفشلِنا وعجزِنا عن التأثير في الوجود، صخورًا لا قيمة لها، ولا لذَّة تطيِّب أوقاتها، وانعدمت قيمة الحياة، وأمسى الموت والحياة

صِنوين. حينئذٍ لا يُستبعَدُ الانتحار، وتستعلِنُ غريزةُ الموت.

نظرتُ يائسًا إلى ساعة الكمبيوتر الموجودة في الشريط السفلي الأزرق. الخامسة وثلاث وعشرون دقيقة. يَدُوب أروح كافيه إيليت. أي نعم هاتفشخ في الأسعار بسّ كلُّه يهون علشان خاطر القمر يمنى. تركتُ الجهاز. دفعتُ الحساب. ورحلتُ عن السايبر، وصورة الندبة المرعبة التي رأيتها في رسغ الشيخ ياسر أمسِ تحتل فكري. تُرى هل حاول الانتحارَ في شبابه هو أيضًا؟!

***

لَـمَّـا لَثَمْتُـكِ فِي الطَّـــــرِيقِ تَعَلَّقَتْ
بِشِفَـاهِنَا أَحْــدَاقُ كُــلِّ السَّـــائِرِينْ
مِثْــلَ امْرِئٍ عَرَضَتْ لَهُ فِي العَصْرِ مِنْ
رَمَضَـــانَ مَائِـــدَةٌ لِقَوْمٍ مُفْطِـرِينْ!

(من الروسيَّات)

25

الانتظار. الانتظار.

مواصلتان ثالثتهما قدماي. انتظار. الهيكل الخشبي. انتظار. على الأريكة الـمُريحةِ جدًّا بقرب الحائط الأيسر الذي يكسوه ورقٌ اختير بِعناية. انتظار النادل. النظر في القائمة. انتظار. الاختيار والانتظار. الأغنية الفرنسيَّة التي تملأ المكان الرَّاقي، والفتاتان الثريَّتان أنيقتا الثياب اللتان تجلسان في آخر الكافيه، وتضحكان وتنتظران برُقيٍّ! حتَّى الأنفاس تخشى أنْ تدلِف إلى الرِّئات بدون استئذانٍ ووقار. المكان لا يحبس الأنفاس بل يُرقِّيها! جاء الكابوتشينو في فنجان ضخم أبيض يُشبه سلطانية الشوربة بسّ على نضيف. تتصاعد من سطحه الرغوي أبخرةٌ لذيذةٌ. وأتى معه إناءٌ فيه أكياس سكر صغيرة. أفرغتُ في الفنجان ثلاثة أكياس. قلَّبتُه. ارتشفتُ منه. أعدتُه إلى طبقه. أنتظر. ظهري هو المواجه للمدخل الجانبي... أي إنَّني لن

أستطيع أن أتبيَّن أيَّ قادمٍ جديدٍ إلَّا إذا سار أربع خطوات على الأقل داخل الكافيه. الظلام الزَّاحف في الخارج ينطبع على استحياءٍ فوق النوافذ الجانبية. كم أُحِبُّه! نظرتُ في ساعة يدي. السادسة تمامًا. رفعتُ الفنجانَ إلى شفتيَّ. ترامى إليَّ – والسائل الساخن فوق لساني – صوتُ انفتاح الباب. ابتلعتُ الرَّشفة، وأعدتُ الفنجان إلى طبقِه، والتفتُّ أنظر إلى القادم. و... مَن هذا؟! لم أكن أعلم أنَّ الحلوف محمود صبري صاحب دار الحَلبة من روَّاد كافيه إيليت!

26

نَظَرَت (اللحيةُ الدوجلاس) في المكانِ قليلًا! أعدتُ وجهي إلى فنجان الكابوتشينو هاربًا منه. لكن... أليس الجاكت الذي أرتديه الآن هو نفسه الذي قابلتُ به أمسِ الحقير محمود صبري؟! ولماذا لم تحضُرْ يمنى حتَّى الآن. ألم تصل إليها الرسالة أم...؟!

- إيه يا جابر؟!

أتاني صوتُه من ورائي، فالتفتُّ إليه عابسًا، وقلتُ وأنا أدفع عنِّي رغبتي في الشِّجَار:

- بصّ. أنا ما عنديش خُلق للكلام معاك. اتفضّل روح اقعد على الترابيزة اللي انتَ عايزها وسيبني فْ حالي علشان عندي معاد دلوقتي.

اقترب ببطءٍ، وجلس على الأريكة التي أمامي بقامتِه الضَّخمة، وقال بشفتيه الزرقاوين الداكنتين:

- معاد مع يُمنى؟!

عزف قلبي تفعيلة الخَبَب (فَعِلُن) مفجِّرًا بها تساؤلاتٍ لا نهايةَ لها في ذهني! أشحتُ وجهي عنه مُحاولًا التفكير في قوله، قبل أنْ أسأله بصوتٍ كالفحيح:

- إنتَ تِعرف يمنى منين أصلًا؟!

فأجاب بنبرتِه ثقيلةِ الظِّل، وهو ينصب ذراعيه على المنضدة كالهرم:

- هوَّ فيه حدّ ما يعرفش بنته يا جابر؟!

27

في لحظةٍ واحدةٍ، نتأتْ في ذهني كلُّ ذكرياتِ أمسِ، تتوالى كومضات البرق في ليلةٍ أقسم زيوس فيها أنْ يمحوَ البشر من على الأرض بسلاحِه المدمِّر. رنين موبايل محمود صبري الذي أسلَمَه إلى حوارٍ قصيرٍ مع (حبيبته)... (حبيبته) التي مررتُ بها وأنا خارجٌ من البناية التي فيها دار النشر... (حبيبته) التي رَكِبَتْني أمسِ (أوَلستُ أنا التاكسي؟!). قولها الذي قطعتْه بـ (خلاص خلاص)، والذي أعقب سخريتَها من عنوانَيْ رِوايتيَّ، وأرجِّح أنَّه كان لملاحظتِها اسم دار النشر على أحد الغلافين... دار نشر أبيها! حقيبة يدها السوداء المكتنزة التي - لا شكَّ - كانت تحتوي الشيءَ الذي أمرها والدُها بأنْ تأخذه من السكرتيرة، ولا أعلم ما هو!

نظرتُ إليه مليًّا، وأنا لا أدري وسيلةً لهتك ستار الصَّمت؛ لكنَّه استطاع هتكه، وقال من موقف القوَّة الذي اضطرَّني فيه

إلى حافَّة رقعة الحوار:

- عايز إيه من بنتي يا جابر؟ وانتَ كمان تعرفها منين؟

تراقصَتْ في خيالي بعد سؤالَيه كلُّ أطيافِ الشَّخصيَّات التي لا أحتمل رؤيتها. مرشدتا البيت... زوج أختي... زوجة عمِّي... رباب... الناقد السَّطحي الـمُنحطّ... حسام الجعَّار، و... ومحمود صبري نفسه. واندفعتْ في شراييني دماءُ السُّخط، وعزمتُ على أن أنتقمَ من كلِّ هذه الأطياف ممثِّلًا إيَّاها في شخصِه.

هتفتُ فيه وأنا أنهض من مكاني بصوتٍ لفتَ إلينا الفتاتين الراقيتين:

- بصّ... واحد واطي زيَّك مالوش يسألني عن اللي باعمله. أنا اعمل اللي انا عايزه. ولو انا عايز ارافق امّك هارافقها، ولا تقدر تعمل أيّ حاجة.

فنهض بدوره غاضبًا (هُرِعتْ إلينا فتاةٌ جميلةُ الملامح لعلَّها نادلة)، وصاح بزَبَدِ فمه:

- أنا ما اسمحلكش.

فلم أستطع كبحَ ثورتي، ولا امتدادِ يدي إلى فنجان الكابوتشينو، ولا قذفِ ما به على وجهه بحركةٍ مفاجئةٍ أعمَتْه، وأذهلتْ كلَّ ذرَّةِ ترابٍ راقيةٍ في المكان! ورحلتُ كالإعصار عن الكافيه، دون أن أدفعَ الحسابَ (الباهظ)، غيرَ عابئٍ بأذرُعِ العاملين ولا صيحاتهم التي تُحاول اقتناصي، ومحمود صبري يصرخ وسط بَلَلِه المسكَّر:

- والله لاورِّيك يا جابر. والله العظيم لاربِّيك.

28

أمامَ البحرِ أجترُّ المآسي. أذيبُ بموجه الداكنِ جميعَ همومي السَّوداء. الأفقُ يتلوَّنُ بمصيري، وثورةُ الرِّياحِ تُحاكي فعلي القريب! أسرعتُ لدي خُروجي من (إيليت) صوب الكورنيش هاربًا ولائذًا. جلست موليًا حجارة البَشَرِ ظهري. أُحَدِّقُ في تَدَاعِي الـمَوْجِ فَوْقَ أصابعِ الشَّاطئ. لماذا تندلعُ كلُّ المصائب مرَّةً واحِدةً في هذا الوقتِ القَصير؟ برغم أنني أشبعتُ في نفسي الرَّغبةَ في إذلال محمود صبري إلَّا أنني أيضًا غير مُطمئنٍّ لما سيحدث في المستقبل القريب. محمود صبري ثبت أنَّه أبو حبيبتي التي أريد أنْ أراها بأيِّ طريقةٍ ممكنة أو مُستحيلة! وهو يعلم الآن أنني مُدَلَّهٌ في حبِّها. كما أنَّه يُضمِر لـي - بلا شكٍّ - شرًّا، سيُحاول أنْ يُجرِّعَني إيَّاه بأيَّةِ وسيلةٍ، ما لم أَرُدَّه عن مأربه قبل أنْ يفكِّر في إيذائي. لا أمل يلوح في الأفق، إلَّا سحابة بيضاء تتوسَّدها النُّجومُ التي بدأت تُفيق من سُباتها النهاري لتحرس بحر الإسكندرية. أخرجتُ الموبايل، وبحثتُ - بدافعٍ

من صوتٍ داخليٍّ عجيبٍ – عن أغنيَّةِ (سَلُوا كؤوسَ الطِّلا) لأم كلثوم. قرَّبتُ سمَّاعة الموبايل المشروخ الشاشة من أذني، لأتغلَّب على ضجيج الرِّياح. أصغي خمس دقائق، وأتأمَّل ربع ساعة. إصغاء. تأمُّل. إصغاء. تولُّد أفكارٍ ووأدُ كآبةٍ، لا تلبث أنْ تُبعثَ مع صوتِ أم كلثوم، وهو يعصف في أذني اليُسرى بالخاتمة الموجِعة.

يَا جَارَةَ الأَيْكِ أَيَّامُ الهَوَى ذَهَبَتْ
كَالحُلْـــمِ آهًا لأَيَّـــامِ الهَوَى آهَا

***

سَأَدْعُو الـمَوْتَ لَوْ لَمْ تَقْضِ لِي يُمْنَى احْتِيَاجَ الرُّوحْ
أَنَا نَبْـــتٌ بِلَا سَـــاقٍ سَـيَفْنَى لَوْ تَحَـــدَّى الرِّيـحْ

(من الرُّوسيَّات)

29

الناسُ في أرض عبد الباقي خَطِرون. حين حضرتُ يوم الاثنين لزيارةِ طارق، وإعـطـائه زجـاجة الـڤودكا، استوقفَني - بعد أنْ خرجتُ من التاكسي - رجلٌ غليظُ الهيئة. كانت السَّاعةُ العاشرةَ مساءً (قبل انتهاء الوردية بساعة)، وكثيرٌ من الناس مجتمعين في مقهًى قريبٍ، يُتابعون برنامج (توك شو)، يجأر مقدِّمُه بدعوة (السيسي) لإنقاذ مصر من إرهاب الإخوان المسلمين، وأنْ (يكمِّل جميله)، ويُرشِّحَ نفسَه للرئاسة! دنا منِّي الرَّجل، وقال لي بصوتٍ دأبَ على اغتصابِهِ دُخَانُ السجائر والشيشة (كما خمَّنتُ)، إنَّ ركنَ السيَّارة في هذا المكان يستوجب دفع خمسة جنيهات. لم يقتنع حين قلتُ له إنَّني ذاهبٌ إلى صديقٍ لدقائقَ بعدها أرجع إلى التاكسي وأرحل، وأخذ يسألني عن هذا الصديق. اسمه. عنوانه. وظيفته. رجَّحْتُ أنَّه إمَّا مُخبِر، وإمَّا مواطنٌ شَريفٌ، يُمارِس حقَّهُ الطبيعيَّ في (البَضْيَنَة) على شابٍّ مُلتحٍ (دقني كانت خفيفة، بسّ مش مهم!). انصعتُ

أخيرًا لطلبه، وأعطيتُه خمسة جنيهات، وشكرتُه على اهتمامِه!

الآنَ أعود إلى نفس البُقعةِ الخَطِرةِ التي لم يَجِدْ طارق في غيرِها مسكنًا يُلائم ميزانيَّتَه الضئيلةَ سابقًا (كطالبٍ يحيا بمصروف)، وحاليًّا (كعاملٍ في مكتبِ تصوير). دقائقُ البحر أرهقتني، وأوصدتْ بإزائي كلَّ أبواب الهروب، إلَّا الباب الذي أصبو إليه من أمسِ... القودكا السِّحريَّة!

الساعة الآن التاسعة تمامًا (برغم أنَّ موعدنا كان بعد انتهاء ورديَّتي (التي تبدَّلت اليوم) إلَّا أنَّ ضَيقي العميم جعلني توَّاقًا إلى مُجالسته أطول وقتٍ ممكن. لعلَّه أنهى الآن عمله؛ وحتَّى لو لم يكن قد أنهاه بعد، فسوف أنتظره على عتبة غرفته!).

دلفتُ إلى الحارة الضَّيِّقة التي يُقيم طارق فوق سطح إحدى بناياتها. التزمتُ أنْ أمشي لاصِقًا عينيَّ في الأرض الـمُعتِمة، لكيلا تصطدما بأحد تجار البرشام المرتصِّين على الجانبين! الحيوانات المفترسة تظنُّ في النظرات المباشرة تحديًا وعداءً! القمامة على الجانبين تفضح سلوك النَّاس في الحارة. حفاضات الأطفال العامرة. عُلبة بيرة 500 مللي من نوع سقَّارة لونها

عسلي (هذا دليلٌ على أنَّ نسبة الكحول فيها 10٪!). ولمحتُ بجانبَيْ عينيَّ شابًّا يقف مستندًا بظهرِه إلى إحدى البنايات، لغرضٍ غيرِ مجهول!

وصلتُ أخيرًا إلى البناية الـمُتهالِكة التي يقيم فيها طارق. لها بوَّابةٌ مَعْدِنيَّةٌ سوداءُ ذات درفتين، تجلس خارجَها كومةٌ صغيرةٌ من أكياس الشيبسي الفارغة، وعلب المياه الغازية الـمُمَهَّكة! كانت البوابةُ مواربةً، فدخلتُ، وبدأتُ أصعد الدَّرج. لكن... كان باب الشَّقة التي بالطابق الأوَّل مفتوحًا لسوء الحظ. خرجتْ منه امرأةٌ ضخمةُ الثَّديين قمحيَّة البَشَرة، ترتدي عباءةً واسعةً، وتُغَطِّي شعرَها بإيشارب يُفصِح عن بعض الخصلات المصبوغة بالحِنَّاء. في شفتيها المكتنزتَيْن، ونظرةِ عينيها الكحيلتَيْن الثَّاقبة، أماراتُ فتنةٍ مندثرةٍ، وباطنٍ شهوانيٍّ لا يهدأ. وكلَّما اقتربَتْ منِّي خُطوةً، ارتجَّت أعطافُها في دلالٍ لا أحسبُها تقصِده. سألتني بصوتِها السَّميك عن مأربي، فقلتُ لها بأريحيَّةٍ إنني صاعدٌ إلى طارق. فأومأتْ إليَّ، ولم تُعقِّب، وعادت إلى شقتها. أكملتُ الصُّعودَ غيرَ شاعرٍ بغرابةٍ فيما حدث.

إضافةً إلى أنَّ أهل أرض عبد الباقي خَطِرون، هُم فُضوليون، وخاصَّةً إذا كانوا من مُلَّاك العقارات، كهذه السيِّدة. أجل؛ هي التي استأجر منها طارق الغرفة التي تعلو سطح البناية، وكانت له معها – تخيَّلْ! – مُغامرةٌ جنسيَّةٌ، أبغضَ بعدَها كلَّ ثديٍ ضخمٍ، حيثُ تكشَّفت له استحالةُ التأقلم مع ترهُّلِه وتهدُّلِه وثِقَلِه على الفراش، إضافةً إلى علامات تمدُّد الجلد (Striae) التي تملؤه، وتجري من تحتِها أوردةٌ عريضةٌ، جاعلةً من النَّظَرِ إلى الثديين في أيِّ وضعٍ جنسيٍّ، همًّا ثقيلًا. نفر طارق من هذا القالَبِ الأُنثويِّ المخيفِ، ونقل إليَّ هذه الكراهية.

أتممتُ الدرجاتِ الباقيةَ بصعوبة؛ فعلى الجانبين أحجار ورمال وشكائر أسمنت، موجودةٌ في هذا المكان منذ وقتٍ طويلٍ، ولا أدري لأيِّ شأنٍ أحضِرَت. وقفتُ لحظةً أمام باب الغرفة الناتئة وسط ساحة سطح البناية التي تحرسُها النُّجوم بما عليها من شكائر أسمنت وأكوام زلط، وتهز الرياحُ الباردةُ أربعةَ أطباقِ استقبالٍ زُرِعتْ فيها. هذا هو المحيط الضيِّق الذي يقيم بين جدرانه طارق، ويغسل وجهه كلَّ صباح في حمامه

الضئيل. طرقتُ الباب. أتاني صوتُ خطوات. مزلاج الباب يموء. انفتح الباب عن طارق. ابتسمتُ حين بدا لي في البيجاما الشتويَّة الكحليَّة اللون. اقترب منِّي مُرحِّبًا. عانقني، وطبع قبلتين على خدَّيَّ، فخمشَتْني برفقٍ لِحيتُه التي أرجِّح أنَّ الـمُوسَى لم تقربها منذ أربعة أيام على الأقل، ثم دعاني إلى الدُّخول. أغلقتُ البابَ ورائي، وسألتُه وأنا أتجوَّل بعينيَّ في الغرفة:

- إنتَ خلَّصت الشغل النهاردا بدري ولَّا إيه؟

جلس على فراشه، وقال لي بصوته العميق وهو يُرتِّب بعض النوتات:

- أنا ما رحتش النهاردا أصلًا. صاحب مكتب التصوير كان عنده حالة وفاة وما فتحش.

لم أعقِّبْ (*إيه حكاية الموت النهارده؟!*)، فسألني وهو يُغلِق اللاب توب:

- عملت إيه مع حسن أبو طالب؟! أنا حاسس انّ فيه مُصيبة حصلت.

جلستُ على كرسيٍّ بلاستيكيٍّ بجوار خزانةٍ خشبيةٍ مُتهالكةٍ فوقها العود وبضع صحف، وسألته مُقطِّبًا:

- هوَّ كلّمك ولَّا إيه؟

- لأ بسّ كاتب ع الفيس بوك بوست فيه تعريض بالشغل بتاعك، وعامل له عنوان اسمه: (أدعياء الأدب)!

ازددتُ تقطيبًا، وطلبتُ منه أنْ أقرأَه، ففتح اللاب توب، وأضاء الشاشة، وضغط بعض الأزرار، قبل أن يُناولني إيَّاه.

قرأتُ سريعًا الكلام الذي لا يختلف كثيرًا عمَّا قاله لي هذا الصَّباح. ازددتُ اشمئزازًا. راجل غريب! أرجعت اللاب توب إلى طارق وأنا ألعن أموات أهل ذلك الناقد!

- شكلك ما كنتش تعرفه كويّس.

حكَّ ذقنه وهو يقول:

- ممكن... أنا شفته 3 مرات بسّ تقريبًا وفيه ناس شكروا لي فيه.

هززتُ رأسي وقلتُ له:

– إنتَ عندك قدرة عجيبة على عمل علاقات مع الناس. أنا ما عنديش استعداد اتعرّف على أيّ حدّ جديد، والبشر يوميًّا بيثبتولي انّهم ولاد قَحبة.

– بين كلّ عشرة زَيّ الخرا ممكن تلاقي واحد نضيف... واحد زيّ (الـمُخاط) مثلًا! بسّ... أهو حظّك بقى. ما تيأسش. الأدب مش نظريّات في الفيزيا تقدر تبرهن على صحّتها بالمعادلات. فيه مليون ذوق ومليون مذهب. استحالة تلاقي اتنين متّفقين على نفس الحاجة في الأدب. وانا عن نفسي الرّوايتين عجبوني جدًّا.

ثم قال كأنَّه تذكَّر شيئًا:

– صحيح... إيه أخبار الرواية الجديدة؟ عملت إيه مع دار الحَلَمَة؟

انفجرتُ ضاحكًا لسخريته اللاذعة من اسم دار النَّشر المنحوت من أحد فصول رواية (رحلة ابن فطُّومة) لنجيب محفوظ. دار الحَلبة التي انتقل إليها (قنديل محمد العنَّابي) بعد سجنه الطويل بدار الحيرة، وكانت رمزًا للدولة العلمانية ذات

الاقتصاد الرأسمالي!

قبل أنْ أحدِّث طارق بشيءٍ عن أحداث يومي الصدمات، قلتُ له مترنِّمًا مطلعَ أغنيةٍ أعشقها لداود حسني:

- طُفْ بكاسِ الرَّاح يا هذا الجَميل.

فقام إلى الخزانة مبتسمًا، وأخرج منها زجاجة الڤودكا ID، وكوبين صغيرين، وكيس شيبسي كبيرًا بطعم الجبن. أدنى طاولةً صغيرةً لوضع الشراب، وهو يترنَّم بصوتِه (الداوديّ):

- هاتِ هاتِ هاااااااااااااااااااات.

وانفجرنا نضحك كطفلين معًا، وشربنا (فسَطَلْنا) ظلَّنا!

***

(لم تَكُنْ مراوداتُ امرأةِ خالِه لَه عن نفسِه، خفيَّةً ولا غامضةً! وكان يتعجَّبُ كثيرًا من عَجْزِ رِجالِ (بيت العيلة) الفلاحين الـمُحافِظين على التقاليد، عَنْ تَبَيُّنِ غُنْجِها، ومحاولاتِها الدَّائِبَة لتوريطِهِ في الاختلاءِ بها. اختلَتْ به ذاتَ يومٍ - وخالُه في (الغيط) - وهَمَّتْ به، فلم يَهُمَّ بها، فتبدَّلَتْ. انصرفَ

عنها مُرتَبِكًا، واعتزلَ النَّاسَ تحت شجرة (السنط) القريبة. وفي وقتِ الغروبِ، التقتْ أعينُهما أثناءَ تَجهيزِها للطَّعَام، فلمح بوجهِهَا الشَّرَّ، فأيقن بأنَّ أيامَه في (بيت العيلة) باتَتْ مَعْدُودَةً!).

(نافذة بلا كوخ – ص 32)

30

مع كأسِ الڤودكا الأولى يحلو البَوْح. اصطلح القدماء على تسمية أي قَدَحٍ توضع الخمر فيه بالكأس، حتى ولو كان كُوبًا رخيصًا كالذي أشرب منه، ولذا أقول (كأس الڤودكا) لا (كوب الڤودكا)!

جعلتُ أحكي وأحكي، وطارق يُصغي ويُصغي، وحين ختمتُ بسرد وقائع قذيفة الكابوتشينو بكافيه إيليت، أخذ يضحك، وهو يؤكِّد أنَّني (فَشختُ) صاحب دار (الحَلَمَة) بهذا الفعل. لكنَّني صرَّحتُ له بتوجُّسي من تهديده، فقال لي وهو يصبُّ في كأسِه رشفتين من الزجاجة:

– إنتَ المفروض تشيله من سكّتك تمامًا قبل ما يعمل أيّ حركة وسخة و... وبعدين هوّ انتَ لسّه حاطط في دماغك يمنى ليه؟

وضعتُ في فمي شريحة شيبسي (أول ما يدخل جوفي من

طعامٍ اليوم)، وقلت:

– أنا باحبّ يمنى. مش عارف انتَ جرّبت ده ولّا لأ؛ بسّ شعور ما يتوصفش. لدرجة انّ ما يهمنيش انّ ابوها يبقى حتَّى السيسي!

– كلّ الستات عاملين زيّ أوراق الشجر. شكلهم مختلف. فيه الطويلة... العريضة... الفاتحة... الغامقة... جرَّب تحرق الأوراق دي. هتلاقي النتيجة واحدة. والجنس هو الفرن اللي بتتساوى فيه أوحش واحدة مع ملكة جمال الكون. ما يهمّكش دلوقتي يمنى ولَّا مش يمنى. حطّ قدّام عينيك هدف واحد.

– محمود صبري؟

– بالظبط. لازم تشيله من طريقك وإلَّا هيزعجك.

– شايف ممكن يزعجني ازَّاي؟

مسح على لحيته، وقال:

– إنتَ كلّ مستقبلك في الكتابة. أيّ حدّ هيستلمك في النقد هيقرفك. وأيّ حدّ هينفّض لك برضه هيقرفك. ولاحظ كمان

انّ التاكسي اللي انتَ شغّال عليه، تبع واحد كان صاحب عمّك. وعمّك كان صاحب محمود صبري. ودي برضه مشكلة. ممكن يعمل لك مشاكل في عيلتك. و...

قاطعتُه بإشارةٍ من يدي، وقلتُ له:

- لأ أهلي مافيش منهم خطر. أَيْ نعم وجودهم أصلًا في الحياة مش مريّحني نفسيًّا، بسّ مش لدرجة الخطر يعني.

ابتسم وهو يرشف من كأسه، وقال:

- إنتَ شايف كويّس مصر بقت عاملة ازّاي. خلعنا الأول نظام (التَّعريص)، فجِبنا نظام (أَخْونة الدولة). شلنا (أَخْونة الدولة)، فجبنا (خَوْلنة الدولة والـمُحْن للجميع)، والتعريص طبعًا ما بيتزحزحش في كل العصور! واللعبة الوسخة اللي شغّالين فيها انّ الخطاب يبقى دايمًا للستات وللأسرة وللمواطنين الشرفاء وكلّ الخرا ده. الأهالي بقوا مُرشدين على ولادهم (هززتُ رأسي متَّفِقًا معه)، والإعلام بيلعب جامد على النقطة دي، ويلعن ميتين اللي كان السبب. تخيّل انّ خالي بعت

لي امبارح شيوخ يكلّموني في الدِّين!

– همّ مش أهلك رموا طوبتك من زمان؟!

– ما انا قلت لك. الدولة بقت الراعي الرسمي للـمُحْن!

ابتسمتُ في مرارةٍ وسألتُه:

– يعني أعمل ايه يعني عشان اخلَص منُّه؟!

جَرَعَ ما بَقِي في كأسِه دفعةً واحدةً. أعادها إلى الطاولة. برقت عيناه، وقال بصوتِه العميق:

– أمّ رياض.

هززتُ رأسي مستنكرًا، وقلتُ له:

– أمّ رياض! إنتَ اتجننت؟! أنا مش كنت قلت لك إنّها تابت عن اللي كانت بتعمله؟

ابتسم ساخرًا وهو يقول:

– تابت؟! يا ابني الشرموطة لو تابت تِعَرَّص، ولو عِمْيِت تِبَعْبَص. دي حقيقة. إنتَ تلاقيك بسّ مخدوع فيها.

تذكَّرتُ المنقَّبةَ اللدِنةَ التي جلسَتْ بجواري في الترام هذا

الصَّباح. يا نهار اسود! معقول تكون هيَّ أمّ رياض؟ نحَّيت سريعًا هذا الخاطرَ عن ذهني؛ فقد كانت تلك المنقبةُ مكتحلةَ العينين. معقول تكون ام رياض كحَّلت عينيها علشان تتنكَّر؟! طب وليه قعدت جنبي في الترام وهيَّ عارفاني؟! ما خافتش اكتشفها؟! ما هذا الجنون؟! لقد ركبت المنقبة بجواري في محطة بعيدة – إلى حد ما – عن حي (فليمنج)، ويستحيل أن تتمكن أم رياض من اللحاق بالترام في هذه المدة القصيرة. هززتُ رأسي في عنفٍ لأسقط هذا الظنَّ الخبيثَ الفاسدَ عنه، وقلت لطارق في حِدَّة:

– يا عم انتَ بتقول إيه بسّ؟! إستحالة. أنا لسّه النّهاردا مدّيها الإعانة الشهرية بتاعتها. وكانت قاعدة ع الرصيف زيّ كل يوم بتبيع مناديل.

رفع كتفيه في لا مبالاة وقال:

– على أيّ حال انتَ قدّامك إنك تسيبه لحدّ ما يحطّ عليك، وقدَّامك إنَّك تفضحه بكلّ سهولة. حتّة حشيش كبيرة (وهوَّ زيّ ما قلت لي حشَّاش عالمي) تحطها له أمّ رياض بعد ما تنسّيه

نفسه زيّ ما هي كانت متعوّدة. وبعدين تبلّغ عنه فيروح في ابو نكلة.

– حتّة حشيش إيه يا طارق؟ هوّ أصلًا حشّاش، وطبيعي انه يكون عنده حشيش! وكمان إيه شغل الأفلام الهابطة ده؟!

– يا عم أي حاجة. حتى لو هتصوّره مع أم رياض، وتهدده بالصور. في كل الحالات ممكن يتلطّ بسهولة.

نفختُ في غيظٍ قائلًا:

– لا إله إلّا الله! باقول لك... أم رياااض... تابت.

اتَّسعت عيناه بَغتةً، وسألني بنبرةٍ جادَّةٍ:

– بغضّ النظر عن أمّ رياض. هوّ انتَ لسّه بتقول (لا إله إلا الله) و(إنْ شاء الله) و(الحمد لله) والكلام ده؟!

– إيه المشكلة يعني؟ دا كلام عادي مافيهوش بالنسبة لي حاجة من معناه الأصلي. (إن شاء الله) بتكافئ perhaps. (الحمد لله) بتكافئ مثلًا... nice. وكدا يعني.

– تبقى محتاج بقى الكلام اللي كتبته لكلّ واحد زيي وزيّك

عايز يتخلّص من الموروث الديني في اللغة.

نهض من على الفراش، وأخرج من الخزانة كشكولًا، وعاد إلى موضعه. فتح الكشكول عند صفحةٍ في منتصفه ممتلئة بالكلام، وأعطاني إيَّاه لأقرأها.

كانت مقسَّمةً إلى عمودين متوازيين من الكلمات هذا نصُّهما:

- إن شاء الله: لو ما حصلش مشاكل.
- بإذن الله: لو ما حصلش مشاكل.
- ربنا يسهِّل: لعلَّ وعسى.
- الحمد لله: بخير - أخيرًا -كويِّس.
- لا إله إلَّا الله: إيه الهمّ دا بقى.
- والنبي: علشان خاطري.
- بالله عليك: علشان خاطري.
- والله العظيم: باتكلِّم بجدّ.
- الله أعلم: مش عارف.

- والله؟!: معقول؟! - بجدّ؟!

- وَلّهْ (واللهْ): أخيرًا.

- واللااهيييييمم: مش عارف - متردِّد.

- ما شاء الله!: شيء جميل (خلَّاب - رائع) فعلًا.

- ما شاء اللاااااه!: إيه المصيبة اللي قدّامي دي؟!

- اللاااااااااااه: إيه الجمال ده؟!

- الـ لَهّ (اللهّ)!: وبعدييين!

- الله اللاااااااه؟!: إيه اللي بتعملوه ده؟!

- اللّلّلّلّلّلّلّه؟!: إنت نسيت نفسك ولّا إيه؟! - إيه الكارثة دي؟!

- إِنشَلّه: حتى لو.

- البقاء لله: البقيَّة فْ حياتك.

- شهداء: قتلَى.

- الله يلعن...: ملعون أبو...

- يللا (يا الله): ما تيجي - تعالَ.

- يللا! (يا الله!): عادي (مع تنهُّدَة).

- يا ربّ: أتمنَّى.

- يااااارب: يا ريت.

- الله أكبر: أخيرًا!

- سلامو عليكم: صباح (مساء) الخير - نهارك (مساءك) سعيد - يسعد صباحك (مساك) - سعيدة.

- الله يرحمه: مات.

- اتوفَّى: مات.

- ربنا ياخدك: إنتَ ما بتموتش ليه؟!

- ربنا يخلِّيك: شكرًا.

- ربنا يخلييييييك: أبوس إيدك.

- على اللهْ: إياك - إوعى.

- على اللاااااه: يا ريت.

– لِلاااااه: ساعدني لو سمحت ماعييش (أكل – فلوس – ...).

– الله عليك!: أحسنت!

– الله لا يسيئك: علشان خاطري.

– أي والله: فعلًا.

– الله يسامحك: مش هاردّ على واحد زيّك.

أعدتُ إلى طارق الكشكول، وأثنيتُ على اجتهاده، غير أنني قلتُ له إن اتِّباع هذا القاموس (الذي تنقصه – بلا شكٍّ – إضافاتٌ كثيرةٌ) يحتاج مَجهودًا، فقال لي:

– يعني واحد زيَّك مش عايز يتجوّز علشان استحالة يلاقي واحدة توافق هيّ وأهلها انّ الجواز ما يكونش على سنّة الله ورسوله، واستحالة المجتمع يتقبل ده قبل 100 سنة على الأقل. إيه اللي يخلّيك بقى تفضل تستخدم كلام انتَ مش مقتنع بيه؟!

مططتُ شفتيَّ، ووعدتُه بأن أحاول.

كانت الساعة قد أصبحت العاشرة والنصف. لم نستهلك

من زجاجة الڤودكا إلَّا نصفها، ومن كيس الشيبسي الكبير إلَّا ثلثه تقريبًا. طلبتُ من طارق أنْ يختم هذه السهرة بغناء بعضٍ من الآيات التي أعطاني تسجيلاتها يوم الاثنين، فقام إلى العُود وهو يقول:

– عجبتك التسجيلات؟!

فأجبته بحماس:

– مُذهِلة. بسّ نفسي أعرف إيه سرّ شغفك ده بالقرآن رغم إنَّك لادِيني.

– أنا شايف انّ القرآن نصّ أدبي متميِّز وكاشف لحقبة بعيدة ليها سحرها. كلمات القرآن فيها موسيقى المفروض تُستغَلّ في الغناء لأن الترتيل لوحده ما بيوصّلش جرعة السحر كاملةً. العُود بينقل الكلام نقلة تانية خالص.

– بسّ خلّي بالك. الموضوع ده هيعمل لك مشاكل كبيرة مع الناس.

ابتسم وهو يرفع العود من زنده قائلًا:

- الإبداع اللي ما يعملش مشكلة ما يبقاش إبداع.

وجلس على الفراش. بدأ يدوزن العود، ثمَّ توقَّف بَغتةً، وقال:

- باقول لك يا جابر.

- نعم!

- إنتَ مش قلت انّ يمنى تبقى بنت صاحب دار الحَلبة؟!

- تمام.

- وصاحب الحَلبة اسمه محمود صبري؟!

- إنتَ اتسطلت ولَّا إيه؟!

تابع كأنَّه لم يسمعني قائلًا:

- تبقى فتاة أحلامك اسمها يمنى محمود صبري.

أشحتُ وجهي عنه، فوضع العود جانبًا، وفتح اللاب توب، وضغط بضعة أزرار، ثمَّ ناولني إيَّاه. نظرتُ إلى الشاشة. صفحة فيس بوك في أقصى يسارِها صورة فتاة محجَّبة بيضاء مبتسمة تُشبه الرُّوسيات. اسمها المكتوب بجوار صورتها كان: Yomna Sabry!

31

لم أحسَّ قَطُّ ميلًا لهذا الفيس بوك. لا أجد فيه إلَّا فضاءً افتراضيًّا ضخمًا يُطلِقُ فيه الناسُ لبضائِهم العِنانَ. صور بضان. تعليقات بضان. بوستات بضان. ولهذا لم أعتنِ بصفحتي عليه إطلاقًا. أنشأتُها فحسب مواكبةً لموجة التطوُّر الصَّاخبة غير أني لم أكترث لها يومًا. لكنَّ ليمنى حسابًا عليه. صورتُها واضِحَةٌ تشع جمالًا. تأمَّلتُها لحظاتٍ. غبتُ لحظاتٍ. دعوتُ طارق أنْ يترنَّم. غبتُ معه دقائق. زادتني الأنغامُ سُكْرًا. لكلمات القرآن مع العُود سِحرٌ عجيبٌ. في القرآن أصلًا آياتٌ موزونةٌ على تفاعيلِ الخليل بن أحمد. طارق يصدح: وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ. وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا العِشَارُ عُطِّلَتْ.

مُتَفاعلن مُفْتَعلن. مُتَفاعلن مفاعلن. مُتَفاعلن مفاعلن

حلَّقتُ مع الموسيقى الخلَّابة، حتَّى أذَّن ديك الرحيل، فاستأذنتُ من طارق واعدًا إيَّاه بلقاءٍ قريبٍ (لم أكن أعلم في لحظةِ الاستئذان أنه سيكون قريبًا جدًّا!)، وفارقتُ أرض عبد الباقي إلى مُصيبةٍ جديدةٍ كانت تنتظرني في منزل الـمُرشدتين!

32

الخدَّان السميكان. الجسد المترهِّل. الوجه الـمُراهِق المزجَّجُ الحاجِبَين. اجتماع هؤلاء في الصالة حول المنضدة يُنذر بالسوء. ما إن أغلقتُ باب الشقة ورائي، ونظرتُ إلى اجتماع أمِّي، والحاجّة (هيَام)، وأختي مريم، حتَّى قطَّبْتُ، وقلتُ دون سلام:

– فيه مشكلة ولَّا إيه؟!

لم تجبني أمي، فانبرت للكلام الحاجة هيام:

– ينفع يا جابر اللي عملته مع الأستاذ محمود صبري النهاردا؟

فارتْ عيناي بغضبٍ ذكَّرني بكلام طارق عن (دولة الـمُحْن)، وقبل أنْ أنبِسَ بأيِّ حَرْفٍ يُطيحُ بتدخُّلِهِمْ في شؤوني، أردفَتْ:

– معقول بتبعت لبنته الدكتورة جواب غرامي. وكمان تتعدّى عليه وهوَّ بيدافع عن كرامته. الراجل كان بيتّصل وبيشتكي منّك بمرارة. ليه كدا يا جابر؟ ورباب خطيبتك ما عملـ...

قاطعتُها صائحًا (ليتني شخرت!):

- رباب خطيبتي إيه يا ستّ انتي؟! إنتي بتضحكي على نفسك؟ أنا عمري ما هاتجوّزها ولا افكّر أصلًا أبصّ لواحدة زيّها. قال خطيبتي قال!

- شايفة يا امّ جابر؟

تنهَّدَتْ في أسًى، وقالت بوهن:

- يا جابر ما يصحّش كدا. الحاجة هيام ما قالتش حاجة غلط.

- إيه الهمّ دا بقى؟! مش مسموح لأيّ حد إنّه يتدخّل في حياتي الشَّخصية ولا في سلوكيَّاتي.

هتفت أمِّي:

- لأ يا جابر. إنتَ بتضيّع نفسك ومش شايف مصلحتك من يوم ما سبت دراستك. وكمان إيه الريحة اللي طالعة من بقّك دي؟ خمرة يا جابر؟

- مالكيش دعوة.

قالت الحاجَّة هيام في ذهولٍ واستنكار:

- إنتَ بتشرب خمرة يا جابر؟

- أحَّى! ما جوزك العِلْق كان مقضِّيها مع الخَوَل محمود صبري.

اتسعتْ الأفواه الثلاثة بعد قولي هذا (واندهشتُ أنا شخصيًّا من إهانتي لعمِّي الذي أكنُّ له وُدًّا عظيمًا، لا أملِك مثله لزوجته وابنته). تركتْ مريم الصالة، واختفت في غرفتها. أخذتْ أمِّي تمرمش بعينيها، بينما نهضت الحاجَّة هيام من مقعدها، وقالت مشمئزَّةً وهي تستند بيديها إلى المنضدة:

- إنتَ بني آدم مش محترم. والله حرام عَطْف عمّك الله يرحمه عليك وحرام كلّ قرش صرفه علشان يخليك مبسوط. والله بُعدك عن بنتي فضل من ربّنا.

نظرتُ إليها شزرًا، وانسربتُ في غرفتي التي أتاني فيها صوتُ باب الشقَّة يُصفق بعنف.

نظرتُ في الجدرانِ وأثاث الغرفة قليلًا بعد أن أضأتُها. لماذا

يتآمر الكونُ عليَّ اليوم؟ مصائب كأنَّها كانت متلاصقةً معًا كأصابع السجق، ما إنْ سُحِبت الأولى في مقرِّ دار الحَلبة، حتَّى توالت البقيَّة بعدَها تَتْرى.

جلستُ على الفراش، وقلبي ينبِض بفعل الثورة العارمة. لا شيء سيداويني سوى الكتابة. سأقتل بها الذكريات، ولعلِّي بذلك أستريح.

فتحتُ درج المكتب الأول. التقطتُ دفتر يوميَّاتي الجديد الذي لم أكتب فيه شيئًا بعد. أخرجتُ قلمي الروترنج من جيب قميصي، وبدأتُ أدوِّن بسرعةٍ يشحَنها السُّخْطُ، أحداثَ يَوْمَي المصائب، بدايةً من لقائي بمحمود صبري حتَّى...

33

حششتُ الخُطى نحو...

قبل أن أقلب الصفحة لأدوِّن بقيَّة العبارة، سمعتُ طرقاتٍ صاخبةً على باب الغرفة. انفتح بعدها بعنف، فطالعني وجه مريم محتقنًا، وفي يدِها شريط أقراص فارغ. هتفتْ في ذعر:

– إلحق ماما يا جابر. دوا الضغط بتاعها خلص ودماغها هتنفجر من الصُّداع. إنزل بسرعة جيبلها الدوا.

نفختُ في ضَيْقٍ، وأحسستُ أنا نفسي ومضةَ صداعٍ مثل الذي زارني أمسِ، تنمو في أعصابي.

وضعتُ الدفتر والقلم على الفراش. خرجتُ من الغرفة. أوصدتُ بابها. نظرتُ إلى أمِّي الجالسة في الصالة مائلةً على المنضدة، ويداها ممسكتان برأسِها في ألم، فتحرَّك شيءٌ منِّي. أخذتُ من مريم الشريط الفارغ. خرجتُ من الشقة مسرعًا. ذهبتُ إلى صيدلية الدكتورة إحسان المجاورة للمنزل. كانت

مفتوحةً لحسن الحظ. اشتريت الدواء. صعدتُ دَرَجَ البناية مُهرولًا حتى بلغتُ الطابق الثالث. لم أطرق الباب. أدرتُ فيه المفتاح. دفعتُه. و... ما هذا؟!

مريم تخرج من غرفتي مُسرعةً، وعلى ملامِحِها شحوبُ مَنْ كُشِف أمرُه وهو يفعل ما يستوجبُ الغَضَب.

صرختُ فيها وأنا ألقي الدواء على الأرض:

- كنتِ بتعملي إيه في أوضتي؟

أجابت متلعثمةً:

- عادي يعني. كنت بادوَّر علاااامم. على القَصَّافة.

- يا شيخة! ومن إمتى أصلًا القصَّافة فْ أوضتي. طول عمرها في درج الدولاب اللي فْ أوضة بابا. وكمان مين اللي يقصّ ضوافره في المصيبة دي؟!

لم تنبس بحرفٍ، فهتفتُ:

- أنا ما عادش ليَّ قعاد في البيت ده. أنا سايبهُلكم تشبعوا بيه.

وذهبتُ إلى غرفة أبي. لم أضئ النور معتمدًا على الضوء الآتي من الصالة. التقطتُ من فوق الدولاب حقيبة سفره السوداء الكبيرة (التي كان يتمنَّى دومًا أن تمتلئ مالًا!)، ورجعتُ سريعًا إلى غرفتي. لمحتُ قبل أن أدلف إليها مريم وهي تنحني نحو الدواء لتلتقطه، وأمي وهي تئنُّ من الألم. تجاهلتُهما. بدأتُ أجمع أغراضي الأساسية (التي أهمها مدَّخراتي (وضعتُها في جيبٍ متوارٍ داخل حقيبة يدي) ودفاتري وشريط الكتافلام (وضعتهم في الحقيبة الكبيرة مع الكوڤرتة)). وقبل أن أغلق الحقيبة الكبيرة، لمحتُ على الفراش الدفتر الذي كنتُ أدوِّن فيه ذكريات يومي المصائب مفتوحًا على الصَّفحة التي أنهيتُ الكتابة فيها عند عبارةٍ لم تُستكمل. لم يكن عندي شكٌّ في أنَّ مريم قرأت هذه الصَّفحة وأنا في الصيدلية. أغلقتُ الدفتر (الذي لم تَحمِهِ من التلصُّصِ للأسف كلُّ إجراءاتِ الأمانِ التي اعتدتُ اتباعَها!)، ووضعتُه في حقيبة يدي هو والقلم الروترنج، مع قلمٍ آخر من طراز (زِبرا) كان مُلقًى على المكتب بجوار الكمبيوتر، تحسُّبًا لانتهاء (سنون) القلم الآخر. ضممتُ

دفتي الحقيبة الكبيرة. حملتُها باليد اليمنى، وباليسرى حملتُ حقيبة يدي. خرجتُ إلى الصالة. يد. كوب ماء أسطواني. أعين لائمة (أَمْ خائفة؟). جدران ليمونية اللون متساقطة الطلاء لن أراها بعد ذلك مرَّةً أخرى للأبد. صورة المرشدتين تبهت. الذكريات تتخدَّل. فارقتُ الشقة، ووجهتي (التي ليس أمامي سواها) تتشكَّل في عقلي، وسط غيومٍ كثيفة من الصُّداع الرَّاعد.

34

في الثانية عشرة والنصف، فتح طارق بابَ غرفتِهِ، بعد طرقتين هادئتين منِّي. لم يندهشْ حين رأى في يديَّ الحقيبة الكبيرة والصَّغيرة. ابتسم مرحِّبًا كالعادة. لم يُعانقني. أدخلني إلى الغرفة. تراكُم أغراضه على الفراش يشي بأنَّه لم يكن قد نام بعد. هو عمومًا يحبُّ السَّهر. خمَّن حين جلستُ على الكرسي البلاستيكي المجاور للخزانة الخشبية أنَّ مشكلةً مع أهلي قد تفجَّرتْ، فأومأتُ إليه مُثبتًا، وقلتُ له إنَّ محمود صبري هو السبب الأساسي فيها.

– مش قلت لك؟!

نظرتُ إليه قليلًا، وهو يتململ في جلسته على الفراش، وقلتُ له مُعتذرًا:

– أنا آسف يا طارق انِّي باتقِّل عليك. أنا هابدأ أدوَّر على حتَّة أقعد فيها من بكرة.

بدا عليه أنَّ اعتذاري لم يُعجبه، فقال لائمًا:

- عيب عليك. الأوضة تشيل تلاتة مش واحد. إنتَ أهمّ شيء بسّ تريَّح أعصابك.

أحسستُ الصُّداع يشتد عليَّ، فطلبتُ من طارق كوبَ ماءٍ. صبَّ لي من زجاجةٍ قديمةٍ في الكوب الذي استضاف القودكا قبل ثلاث ساعات (كان على الأرض بجانب الفراش). أخرجتُ شريط الكتافلام من الحقيبة الكبيرة، وابتلعتُ قرصًا مع المياه (الرُّوحيَّة)، وأغمضتُ عينيَّ في استسلام.

- أنا هافرش بقى دلوقتي على الأرض يا طارق علشان تعبان قوي.

لم يعترض على اقتراحي، وأومأ إليَّ موافقًا (تُرى هل سيجمعُنا نفسُ الفراشِ يومًا ما؟!). كويِّس انّ انا جبت الكوڤرتة معايَ. مستحيل كنت اعرف اجيب البطانية.

الهواء في الغرفة بارد، وأحسبه أشدَّ من الخارج برودةً. لكن لا ضير. سأتحمَّل. أحضر طارق كرتونتين قديمتين. فَرَدَهما على

الأرض، واستلقيتُ عليهما بثيابي، بعد أن خلعتُ الجاكت ووضعتُه على الكرسي البلاستيكي. تمنيتُ له أن يُصبح على خير. غطَّيتُ نفسي، وتوسَّدتُ كفَّيَّ راجيًا أنْ تُسرِع حبَّة الدواء في تسكين الصُّداع، وأنْ ينسيني النوم شتَّى الذكريات الـمُزعِجة.

35

في باكر الصَّباح، صحوتُ كما اعتدتُ بنفسٍ... لا تحاكي أيَّ شيء. لم أنم جيِّدًا في ليلةِ هجري منزلي. منعتني من النومِ الرَّائقِ ذكرياتٌ كثيرةٌ كانتْ شرانقَ كوابيس. نهضتُ من على الأرض بهدوء لكيلا أزعج طارق الذي كان غائبًا في أحلامه. قصدتُ إلى الحمَّام الصَّغير جدًّا الذي يشغل برعمًا ضئيلًا يبرز من الغرفة. أمعائي تريد أن تَلِدَ، وللأسف لا سبيل لولادةٍ قيصريَّةٍ تخفِّف عليَّ آلامَ هذه العمليَّة! أغلقتُ البابَ ورائي. كان الحمَّامُ نظيفًا لحسن الحظ؛ فقد كنت حافيًا. دقائق من التكيُّف. دقائق من المشقَّة المؤلمة. دقائق من غسيل الوجه. خرجتُ أخيرًا. لم يستيقظ بعدُ طارق. قررتُ أن أنتظر صحوَه بالخارج. لم أكن قد أحضرتُ خفّي معي أمس، فوضعتُ قدميَّ في الكوتشي، والتقطتُ حقيبة يدي، وأخرجتُ منها دفتر يوميَّاتي، والقلم الروترنج. أخذتُها معي لأسند عليها، وفارقتُ الغرفة بهدوء، ثم واربتُ بابها. اصطفيتُ للجلوس شكارة

أسمنت كانت بجوار السور. مسحتُها بمنديل كان في جيب بنطالي ثم جلست. نظرتُ لحظاتٍ إلى السماء الصَّافية التي تغار منها سماء أمسِ التي احتلَّتها الغيوم. البائعون في الوكالة (القريبة من مسكن طارق)، والشيَّالون يصيحون من حينٍ لآخر. يتبع الصَّيحاتِ نباحُ كلبٍ، أو صياحُ ديكٍ، أو هديرُ الترام. الحياة تفرك عينيها. انثنيتُ إلى الدفتر، واستأنفتُ تدوين أحداث أمس التي أكاد أجزِمُ بأنَّ مريم اطَّلعَتْ على بعضِها وأنا في الصيدلية. طوفان الأحداث كان يتدفَّق من بين أصابعي فلا أستطيع أن أتحكم فيه، فصرت أكتب بسرعة، وبخط لا يُقرأ. ظللتُ كذلك حتَّى وصلتُ إلى ذكرى الشاب الكئيب ذي الأصابع الأربع الذي فقد محفظته في التاكسي. تركتُ القلم والدفتر، وأخرجتُ من حقيبتي المحفظة المفقودة. المحفظة - لسوء الحظ - ليست هاتفًا محمولًا، يستطيع من يفقده أن يتصل به ليتفق مع مَنْ وجده على مكانٍ يلتقيان فيه لردِّ المفقود! لكنْ... تذكَّرتُ كارت الطبيب النفسي حاتم طبوزاده. أخرجتُه من مجموعة البطاقات المحشورة في جيب المحفظة

الأيمن، وتأمَّلتُ فيه. العنوان... شارع صفيَّة زغلول. وأرقام تليفون العيادة مكتوبة لكن... لماذا أترك الأصل وأذهب إلى الفرع؟ أنا أعرف مكان الفندق الذي طلب منِّي أن أوصلَه إليه، ويمكنني أن أقصده، وأسلمه محفظتَه. هذا هو الحل الأقرب، والأكثر منطقيَّةً. لكن... أنا لا أنكر أنني لا أفضِّل ذلك لأنني (إضافةً إلى نفوري من لقاء ذلك الشاب مرَّةً أخرى) شغوف جدًّا بمعرفة العَلاقة ما بين شابٍّ تبدو عليه الكآبة، وفندق اسمه العجيب ضارب في أعماق الفلسفة، وطبيب نفسي، لقبُ عائلته التركي مثيرٌ للفضول.

دونتُ أرقام العيادة وعنوانها في دفتري الصغير، وأعدتُ الكارت إلى المحفظة، ثم ألقيتها في الحقيبة، ووضعتُ معها الدفترين (الصغيرَ والكبيرَ الخاصَّ بيوميَّاتي)، والقلم، وتسللتُ إلى الغرفة دون جلبة، ووضعتُها فوق الكرتونتين المفرودتين اللتين كنتُ نائمًا عليهما أمسِ، ونزلتُ لكي أشتري الإفطار والصَّحيفة.

36

عندما رجعتُ إلى الغرفة وبيدي كيس الإفطار (أربع ساندوتشات فول، من على عربيّة فول قُرَيِّبة، وبجنيه بطاطس محمَّرة من محل جنب الوكالة)، وصحيفة المصري اليوم، وجدتُ طارق مستيقظًا في فراشه. آثار النوم غير باديةٍ على ملامحه الجميلة. شعرُه مبعثرٌ قليلًا. هناك فعلًا وجوهٌ لا يؤثِّر فيها النومُ مهما طال. قلتُ له مازِحًا:

- أَلَا عِمْ صَبَاحًا.

فردَّ مبتسمًا:

- أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي.

نظرتُ له شزرًا وقلتُ:

- الله يسامحك.

اصطنع التقطيب، وقال وهو ينهض:

- وبعدين! إنتَ نسيت كلام امبارح ولَّا إيه؟!

لم أجبه، وابتسمتُ وقلتُ له:

- أنا جبت الفطار.

التقط منشفتَه، ونظر إلى الكيس لحظةً قبل أن يقول:

- جرَّبت قبل كدا تاكل فول وطعميَّة مع البيرة؟

هززتُ رأسي نافيًا، ففتح الخزانة، والتقط منها علبتي هاينكين كبيرتين.

- إنتَ راجل محترم.

وضعهما على الفراش، فأزحتُ غطاءه السميك، وفرشتُ صفحةً من صحيفةٍ قديمةٍ كانت فوق الخزانة بجانب العُود، ووضعتُ عليها الطعام وعلبتي البيرة، وأخذتُ أتصفَّح صحيفة اليوم منتظرًا عودة طارق من الحمَّام.

أخذتُ أمرُّ بعينيَّ على الصَّفحات، حتَّى استوقفَهما خبرٌ صغيرٌ قرأتُه أكثر من مرَّة، مُحاولًا تفنيده، أو منع عقلي من التفاعل معه، غير أنِّي أخفقت، وتيقَّنتُ من أنني لن أستطيع أن أعيد المحفظة للشابِّ الذي فقدها أبدًا؛ فهل يحتاج الـمَوْتَى إلى مَحَافِظ؟!

37

حين رجع طارق من الحمام، ولاحظ في ملامحي انقباضًا وحزنًا، سألني وهو يجلس بإزائي على الفراش:

- إنت لسّه متضايق من امبارح ولّا إيه؟!

أجبته شاردًا:

- أصعب شيء انّك تعرف انّ حدّ مات، وانت قبل موته بفترة قليّلة كنت بتكلّمه. بتشوف صدره وهوّ بيتنفس. حنجرته وهي بتتحرّك مع كلامه.

حلَّ عقدة كيس البطاطس وقال:

- فعلًا انتَ عمّك مات من فترة قريّبة. أسبوع... بسّ... بسّ إيه اللي...

هززتُ رأسي بعنف، وقاطعتُه قائلًا:

- مش قصدي على عمِّي يا طارق.

وأشرتُ إلى الخبر الذي أحزنني، وطلبتُ منه أن يقرأه،

فتناول الصحيفة وبدأ يقرأ:

عثر الأهالي على جثَّة شابٍّ بمنطقة سيدي جابر، وتم نقلها إلى مشرحة المستشفى الجامعي، ولقد تلقى اللواء أحمد رؤوف مدير أمن الإسكندرية إخطارًا من مأمور قسم شرطة سيدي جابر العميد أشرف البرديسي يفيد بالعثور على جثَّة شاب بدائرة المركز، وتبيَّن من خلال التحريات أنَّ الجثة لشاب مجهول الـهُوية، يرتدي قميصًا كاروهات كحليًّا، وبنطالًا أزرق فاتحًا ممزَّقًا، وينتعل كوتشي لونه أسود في أحمر. وبمناظرة الجثَّة تبين وجود نزيف شرجي، وجروح قطعيَّة في أماكن مختلفة بالجسم، وبتر قديم لخنصر اليد اليمنى، وتم إخطار الأدلة الجنائية لتصوير الجثة، ورفع بصماتها، والنشر بأوصافها.

وضع الصحيفة على الفراش، وقال متعجبًا:

- الخبر بيقول انّ الجثة مجهولة. عرفت ازّاي بقى مين اللي مات؟

بدأتُ أحكي له - أثناء الأكل - بالتفصيل، ما حدث أمس

بيني وبين الشاب المقتول، ووصفتُه له بدقَّةٍ أظهرتْ له التطابق ما بين الوارد في الخبر وما رأيته. لقد مررتُ بذلك الموضوع سريعًا وأنا أشرب القودكا معه أمس، ولهذا كان لا بُدَّ من الإطناب في الشرح، لأغطي ما تجاوزتُ ذكرَه. لـمَّا انتهيتُ من الحكاية قال:

– يعني انتَ كدا السبب في كل اللي هيحصل له.

قطبت وسألتُه:

– اللي حصل له ولّا اللي هيحصل له؟!

جذب فاتحةَ علبة البيرة، فحدث انفجارٌ خفيفٌ، وقال مؤكِّدًا وهو يتهيَّأ للشرب:

– اللي هيحصل له. إنتَ ما تعرفش انّ الجثث مجهولة الهوية بيودّوها كلية الطب علشان تتشرّح وتتقطّع حتت؟!

تذكرتُ في لحظةٍ، ما كان يحكيه لي زملائي في كلية الطب الذين كنتُ ألقاهم مصادفةً في المجمع الطبي قبل أنْ أتخذ قرار التفرغ للأدب. أجل. كانوا يؤكِّدون لي أنَّ مآل المتشردين ومجهولي الهوية بعد موتهم إلى أيدي طلبة الطب. بل وكانوا

يزيدون على ذلك أنَّ عمال المشرحة اعتادوا نبش القبور لإحضار العظام البشرية التي يبيعونها بعد ذلك لطلبة الطب، بعد تجهيزها. فإذا كانت عظامًا حديثة، لا تزال الغضاريف والأربطة لاصقةً بها، قاموا بغليِها لتنفصل عنها الزوائد، ثم دهنِها بالجمالكا. وإن كانت قديمة، تيقنوا من أنَّها نظيفةٌ، لا تحتاج من التجهيز إلَّا أن تُطلَى! حتَّى العظام معروفة الهُويَّة التي دُفنت بعلم أقارب أصحابِها، تُنتهك حرمتُها!

– طيِّب يا طارق مش ممكن أهله يبلَّغوا؟

أخذ رشفة من علبة البيرة وقال:

– وافرض فيه بينه وبين أهله مشاكل زيي وزيك! أو كان أهله بره مصر. مش احتمال وارد برضه؟

– طب والعمل؟!

– يُستحسن تودِّي المحفظة قسم سيدي جابر علشان أي حدّ يعرفه يقدر يوصل له قبل ما الديدان البشرية تبدأ تشتغل في جثته.

ازددتُ همًّا، وأحسستُ وأنا آكل، أنَّ لحم الشاب هو الذي تلوكه أضراسي، فتوقفتُ عن الأكل، وابتلعتُ بمشقةٍ اللقمةَ التي كانت في فمي. هل لهذه الحادثة عَلَاقةٌ بما حكاه لي السائقُ أمسِ بشأنِ الفتى الذي وُجد على الكورنيش الأسبوع الماضي (متنيِّل)؟! لا أدري. لم أكن أدري غيرَ شيءٍ واحدٍ. لا بد وأنْ أذهب إلى حاتم طبوزاده. يحدِّثني قلبي بأنَّ لديه أجوبةً شافيةً عن جميع تساؤلاتي.

ولماذا أبحث أصلًا عن أجوبة؟!

ألم تعلم أنَّ الفضول قتل القط، وأحيى الروائيين؟!

38

لم أصلِّ – كالعادة – الجمعة. وطارق مثلي. ظللتُ أقرأ روايةً لستيفن كينج تُدعى كريستين (لا أدري من أين اشتراها طارق). أعطاني إياها مُثنيًا عليها. تصفَّحتُها سريعًا قبل أنْ أبدأ القراءة، وابتسمتُ حين لمحتُ سُبَّةً تتكرر أكثر من مرَّة على لسان الشخصيَّة الرئيسية... المتغوِّطون Shitters! ظللتُ كذلك حتى حلَّت الساعة الثانية. استأذنتُ من طارق لكي أذهب إلى الشيخ، لأتسلَّم منه التاكسي الذي سيذهب به حسام الجعَّار إليه في الثالثة ككل يوم. لن أطلب من حسام أنْ يسلِّمَني السيارة عند مكانٍ محدَّد مثلما فعلتُ معه أمسِ لكيلا يرتاب الشيخ.

قال لي طارق أنه لن يبرح الغرفة طوال اليوم، لأنَّ يوم الجمعة إجازته. أومأتُ إليه، وأخذتُ حقيبة يدي، ونزلتُ على الدرج، وفي نيتي أنْ أذهب أوَّلًا إلى قسم سيدي جابر.

حين وصلتُ إليه بتاكسي، وبدت لي جدرانه الخارجيَّة العسليَّة تتوهَّج تحت أشعَّة الشمس الفاجرة التي تتمرَّد على ديسمبر تمرُّدًا يقتضي وقفةً كونيةً، أحسستُ في قلبي رهبةً وأنا أنظر إليه. "لا تدخل قسم شرطة ظالـمـًا أو مظلومًا". تقول الحكمة ذلك. أيام الثورة كان اقتحام أقسام الشرطة بل ومديريات الأمن سلوكًا يوميًّا فرض به الثوار سيطرتهم على رموز الاستبداد. لكنها في ذلك الوقت كانت معابدَ بلا آلهةٍ أو أتباعٍ. اليومَ استردَّت سطوتَها القديمة، ولا سيَّما بعد يأس الناس من الثورة، وإدراكِ الشباب أنَّ جميعَ تضحياتهم لا مقابلَ لها؛ ولعل حوادث التعذيب والاختفاء القسري التي أصبحَتْ تتردَّدُ على الألسن – مثلما كان يحدث في الماضي (غير البعيد) – هي خيرُ شاهدٍ على ضرورة اتباع النصيحة القديمة. لن أدخل. ربما يلفِّقون لي تهمة قتل الشاب، ويتخذون من محفظته المفقودة التي معي حُجَّةً (لتطليع ديني) غير الموجود عندي أساسًا! لكن... كان المرورُ غيرُ الـمُتوقَّع لصبيٍّ صغيرٍ بني الشعر يرتدي ثيابًا نظيفة، أفضلَ وسيلةٍ أتغلَّب بها على هذا المأزق.

أعطيتُه عشرة جنيهات، وطلبتُ منه بوُدٍّ أن يأخذ المحفظة، ويعطيها لأي عسكري في القسم قائلًا أنه وجدها في الشارع. ابتهج الصبي، وأسرع إلى القسم، وأسرعتُ أنا أيضًا هاربًا من ذلك المكان خوفًا من أن يدل الصبيُّ الشرطةَ عليَّ!

مشيتُ طويلًا حتى وصلتُ إلى طريق الكورنيش. استقللتُ مشروعًا إلى سيدي بشر. وصلتُ قبل الثالثة بخمس دقائق. سرتُ حتَّى محلِّ الشيخ ياسر. بدا لي من بعيدٍ مُطرِقًا وعلى وجهه صرامة. ألقيتُ عليه السلام، فهبَّ من كرسيِّه، وصاح قائلًا:

- إنتَ ليك عين تيجي؟!

ازدردت ريقي بصعوبة وسألتُه:

- هوَّ فيه حاجة يا شيخ ياسر؟

أجاب في حزم:

- بصّ يا بن الحلال. إنتَ مالكش شغل عندي من النهارده.

هبط قوله على رأسي كالمطرقة، وظننتُ أن حسام اشتكى له

من تعنيفي إياه أمس. لكن... لكن حسام نفسه (صاحب الشأن) قابلني أمسِ دون أنْ يكون في نفسه شيءٌ تجاهي. سألتُه حائرًا:

- ليه بسّ يا شيخ؟ هوّ انا عملت حاجة تزعّلك؟!

- إنتَ بتشرب خمرة يا جابر؟

نظرتُ إليه مذهولًا، وسألتُه وقلبي ينتفض في صدري:

- مين اللي قال لك كدا بسّ يا شيخ؟

- ما يهمنيش عرفت من مين. المهم انّ انتَ مش هتشتغل عندي بعد النهارده. أنا السُّمعة عندي أهم من كل شيء.

قلتُ متشبّثًا بأملٍ أخيرٍ قد يجنِّبني شبح الضياع:

- يا شيخ ياسر. دا عمِّي نفسه الله يرحمه كان شهد لي قدَّامك بالأدب والاحترام والأمانة.

ضيَّق عينيه، وقال مستهزئًا:

- لا والله! جاي دلوقتي تتكلم عن عمّك الله يرحمه بعد ما شتمته امبارح بأسوأ الألفاظ.

علمتُ من قوله فورًا مصدر ما عَلِمَه عنِّي. زوجة عمِّي وجَّهتْ إليَّ الطعنة الأخيرة، وأبتْ إلَّا أنْ تنتقم منِّي شرَّ انتقام. من المؤكَّد أنَّ اتِّصال محمود صبري بها، ألهمها أنْ تفعل نفس الشيء معي. لم أعقِّبْ على كلام الشيخ، ورحلتُ عنه بخُطًى بطيئةٍ شاعرًا بأنَّ كلَّ آمالي قد صهرتها نيران المصائب التي بدأ تسعُّرُها أول من أمس. نيران أحرقت الباب الذي اجتهدتُ طويلًا في حجز غول الانتحار وراءه. وددتُ لو كنتُ ممَّن يفقدون عند المصائبِ وعيَهم، فيسقطون بين أحضان الأرض، ويفزعُ إليهم عتاةُ القلوبِ متعاطفين معهم، غافرين لهم جميعَ خطاياهم التي لا قيمةَ لها أصلًا في نظر الأرض التي يعدُّ كثيرٌ من مخلوقاتِـها القتلَ فضيلةً كُبرى. للأسف لم أكنْ من أولئك المحظوظين. ظللتُ واعيًا أتعذَّبُ في كلِّ لحظةٍ. مَعَ كُلِّ نفسٍ أمتصُّه. مع كلِّ نبضةِ قلبٍ تؤذن بصداع. مع كلِّ نظرةِ احتقارٍ تطفر في ذهني، كان قد سدَّدها إليَّ أحدُ الظالمين. فقدتُ أيَّ حرصٍ على استمرار حياتي. لم يعد يربطني بها أيُّ شيء. خمر النَّجاح انسكبت، وما صرتُ أرى الحياة إلا على طبيعتها...

أتونًا يريد أن يصهرني كما صهر آمالي. همتُ على وجهي غيرَ متَّخذٍ وجهةً معينةً. من شارع إلى شارع. أراقب المارة، وقائدي السيارات الفارهة، فأوقن أنَّ الحياة لا تقسو إلا على الأرانب، وأنَّ الأرض جنَّة المفترسين.

39

لم أرجع إلى غرفة طارق. وفي الواقع لم يعد يهمُّني طارق ولا غير طارق. لم أعُدْ مهتمًّا إلَّا باستئجارِ شقَّةٍ من أيِّ سمسار قوَّاد في سيدي بشر لمدَّة يومين، لكي أنهي فيها حياتي التي لا قيمةَ لها. سأودِّع الحياة بزجاجة نبيذٍ أحمر فاخر. أوَلستُ كالمنتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه؟ رغبتي الأخيرة زجاجة نبيذ شاتوه دو جرانفي غالية الثمن، يزيد الكحول الذي فيها مفعول أقراص المنوِّم التي سأنتحر بها. اشتريتُ من صيدليَّةٍ قريبةٍ علبة Night Calm 3 mg بعد أنْ دوَّنتُ اسمَها بقلمي الروترنج على ورقةٍ صغيرةٍ مسبوقًا بـ ℞، ليظنَّ الصيدلاني أنَّ طبيبًا هو الذي أشار عليَّ بهذا الدواء! ومن صيدليَّةٍ أخرى، اشتريتُ نفس المنوِّم، لكيلا يرتاب فيَّ أحدٌ إن أنا اشتريتُ العلبتين من مكانٍ واحد. بحثتُ عن السمسار الذي استأجرتُ منه قبل عامين الشقة التي ضاجعتُ فيها أم رياض. حين وجدتُه، بدأتُ أحدِّثه عمَّا أريد. كان ينظر حوله من حينٍ لآخر باحثًا عن شيءٍ ما، وفي النهاية

تساءل بخبثٍ إن كان معي أحدٌ أم لا، فلم أردَّ عليه، وأعطيتُه من ظرف مدَّخراتي أجر الإقامة في الشقة ليومين، وأخذت منه المفتاح، وذهبتُ إلى الشقة، التي كانتْ - ويا للعجب! - نفس الشقة التي جمعتني بأم رياض! وضعتُ حقيبة يدي، وعلبتَي المنوِّم على الفراش الذي يشغل الجانب الأيمن من الغرفة الوسطى وردية الطلاء. اتصلتُ بوليد الذي يعمل بمحل درينكيز سيدي جابر (لا أعرف إنْ كانوا يعملون الجمعة أم لا. هو على أيَّةِ حالٍ سوف يحضر لي طلبي لأنني زبون قديم). وصفتُ له العنوان، وأخبرته بالأوردر الذي أطلبه لأول مرَّةٍ في حياتي. أغلقتُ الخط، ثم ضبطتُ الموبايل على الوضع الصَّامت. بعد نصف ساعةٍ من التحديق الفارغ في سقف الغرفة، سمعتُ طرقاتٍ على باب الشقة. كان وليد قد جاء بزجاجة الشاتوه دو جرانفي. شكرتُه وأنا أعطيه ثمن الزجاجة والبقشيش، بكلماتٍ اجتهدتُ لكي تخرج هادئةً غيرَ عاكسةٍ لحقيقةِ طَوِيَّتي المضطربة. ودَّعتُه، وأغلقتُ الباب، واصطحبتُ الزجاجة إلى الغرفة. بدأتُ بمشقةٍ أحاول فتح زجاجة النبيذ. أخيرًا انتزعتُ

السدادة، فتطايرت الأبخرة النفَّاذة من فم الزجاجة. شرعتُ أشرب منها بشبقٍ لم أتخيَّلْه و... ما كان يجب عليَّ أنْ أفرط في الشرب بهذه الطريقة المجنونة! فقد تثاقل جفناي بعد أن لمعتْ أمام عينيَّ ومضاتُ السُّكْر، وطار ذهني في آفاقِ وَهْمٍ جنسيٍّ، كان نهدا يُمنى العاليان بَطَلَيه. وبعد دقائق، وهنتْ عزيمتي السابقة، وسقطتُ على الفراش - قبل أن تلمس أناملي علبتي المنوِّم - نائمًا!

40

بعد ساعتين أو أقل من النوم الملطَّخ بالهلاوس، صحوتُ بنفسٍ... كالـخُرْء! صداع عنيف يعصف برأسي بلا هوادة، وغثيان يطرُق حلقي. تزايد اللعابُ في فمي حين نهضتُ من على الفراش، وأنا أقاوم ضوء مصباح السقف الذي هويتُ نائمًا قبل أن أُطفئه، فهرعت إلى الحمام، وبدأتْ حفلةُ القيء المرعبة! كأن بين معدتي والحوض جنزيرًا غليظًا، لا يكفُّ الحوضُ عن جذبه لتعذيبي لحظةً بعد لحظةٍ. بعد ساعاتٍ قضيتها في الحمام جالسًا على الأرض كالعَبْد، لا أقدر على غير إفراغ أمعائي، عدتُ إلى الفراش، ونمت على جانبي الأيمن كخرقةٍ باليةٍ، ولم أدرِ بنفسي حتى صباح اليوم التالي. استيقظتُ شاعرًا بأنني لاشيء. جميع عضلاتي يستغيث، وأطرافي ملقاةٌ على الفراش بعشوائيَّةٍ كأنها ليست منِّي! كأنني دميةٌ بلاستيكيَّةٌ تلذَّذ باقتلاع ذراعيها وساقيها ورأسها طفلٌ ساديٌّ! نظرتُ في ساعة الموبايل المشروخ. السابعة... بالإضافة إلى ثلاث عشرة مكالمةً فائتةً من

طارق، وخمسٍ من أمي. ما هذا؟! الساعة السابعة! أحَّى! معقولة نمت 11 ساعة؟! لمحتُ علبتي المنوِّم في مكانهما على الفراش، وبدأت أستردُّ إدراكي للواقع تدريجيًّا. هل ما حدث إنذار؟! إنَّ إشاراتِ الصُّدَف، وما يسمِّيه البشرُ العاديون بـ (القَدَر)، تعني لي الكثير. موافقتي منذ يومين على ركوب يمنى (التي ولَّتْ) معي في التاكسي (الذي ولَّى)، برغم أنني أعرفها (بل عشقتها عشقًا، ولَّى هو الآخر بأبشع طريقة!)، كانتْ إحدى إشاراتِ الصدف. هل يُعد عجزي عن الانتحار أمسِ بسبب غبائي إشارةً تُحَتِّم عليَّ أنْ أغضَّ الطَّرْفَ عن هذه الفكرة؟ لكنَّها لا تقبل التغاضي. لقد خرج الوحشُ من محبسه، ولن يعود إليه أبدًا. نظرتُ إلى علبتي المنوِّم. دَفَعَتْهُما يدي اليسرى بغتةً بحركةٍ لا أظنُّها إراديَّةً، فطارتا قبل أنْ تسقطا على أرض الغرفة. نهضتُ. ومضتْ في عينيَّ فجأةً شعلةُ غضب، فاتجهتُ نحو الحائط المقابل كالطلقة، وبدأت أصدم رأسي بعنفٍ كالمجنون (ولِمَ التشبيه؟ لقد أصبحتُ مجنونًا فعلًا!). ومع كل ارتطام يزداد الصداع توحُّشًا. هويتُ أخيرًا على الأرض.

آآآآآآح. لقد ساءت حالتي حتَّى إنَّ مهبط وحيي، وشارع السلطان حسين، والنبي دانيال لا أظنهم قادرين على أنْ يردُّوا إليَّ السكينة! كل المهارب أرتِجَتْ. إمَّا أنْ أنتحر وإمَّا أن أعالَج. أعالَج؟ وهل أنا مريض؟! أنا مُثخنٌ بجراح لذَّ بحفرِها في قلبي الظالمون. لكن... نتأ في ذهني الـمُلبَّد بالصداع بغتةً اسمُ حاتم طبوزاده. لقد كنتُ أنوي قبل اليوم أنْ أذهب إليه لأعرف منه أيَّ شيءٍ أستعين به على تسكين عقلي المشبع بالأسئلة، وقبل ذلك لأردَّ المحفظةَ إلى الشاب المكتئب (الهالِك) بطريقةٍ تجنِّبني التعامل معَه وجهًا لوجه. اليومَ أريده أن يفحصَني! إنَّ جنوني يفاجئني كلَّ لحظة! أنا لا أعرف طبيبًا نفسيًّا سواه. لكن... لكنني يائس. أجل يائس. يائسٌ من كلِّ شيء. سأذهب إليه. لو أتى بمعجزةٍ وقتل غول الانتحار من الدقيقة الأولى (وهذا مستبعَد) فقد أهداني حياةً جديدةً، لن تكون بالتأكيد أقلَّ خُرْئِيَّةً من حياتي الحاليَّة! وعلى أيَّةِ حالٍ، مشروع الانتحار (الذي لا أحسبه سيجثو أمام أيَّةِ قوَّةٍ أو معجزةٍ) لم يزل قائمًا، وأعتقد أنني سأتعلَّم من خطأ أمس الذي فار به تنُّورُ حماقتي! سأسحق

الأقراص المنوِّمة، ثم أضعها في كأس ويسكي لا نبيذ، على أن أبتلع قرصين أو ثلاثة أقراص من دواءٍ يمنع القيء قبل أن أشرب خليط الموت. هذه الطريقة بلا شكٍّ أضمن! لا أدري كيف غابَتْ عن ذهني أمسِ حقيقةٌ تافهةٌ، هي أنَّ الويسكي أغنى بالكحول من النبيذ، وأنَّه أجدَى عند الانتحار من ذلك العصير الـمُخَمَّر؟!

آه من تلك الإشارات التي لا أفهمها، ولا أعرف إلى أين ستحملُني!

41

انطلقتُ أتجوَّل على الكورنيش، بأمعاء تنبِضُ بألمٍ لا يُحتمل. الصداع يشوه الوجود من حولي، ويقيِّد حركات رأسي! غيوم السماء تلائم تمامًا حالتي النفسيَّة. نظراتي إلى البحر خاوية كتلك التي تأمَّلتُ بها السَّقفَ أمسِ لمدَّة نصف ساعة، لا تلهمني أيَّة أفكار جديدة. لا غيرَ إحساسٍ بالحزن في قلبي. ظللتُ أمشي وأجلس. أتأمَّل وأغمض عينيَّ. أتلقى صفعاتِ الرِّياحِ ورذاذَ البحرِ الماجن، حتَّى أصبحت الساعة الثانية عشرة! خلال ذلك الوقت الطويل، اهتز موبايلي تسع مرات. طارق لم يزل قَلِقًا عليَّ، وأمِّي (بدرجةٍ أقل). لو تحققت المعجزة فسوف أعود إليه، وأحاول أنْ أكيِّف حياتي للتعامل مع المتغوِّطين (لماذا أستخدم هذه الكلمة؟!)، لكنَّ تحققها في رأيي مستحيل. اتَّصلتُ بعيادة الدكتور حاتم طبوزاده. ردَّت امرأةٌ رقيقة الصَّوت. سألتُها هل الدكتور حاتم طَبوزاده موجود، فقالت مُصحِّحةً: الدكتور حاتم **طُـبُوزاده** موجود لحدّ السَّاعة 4. طلبتُ منها أن تدوِّن

اسمي في كشف المرضى، وما إن أغلقتُ الخطَّ حتَّى أوقفتُ تاكسي، واستقللتُه إلى شارع صفيَّة زغلول. حين بلغ التاكسي العنوانَ الذي أردتُه، ترجَّلتُ بعد أن نقدتُ السَّائق أجرَه، وتأمَّلتُ لحظاتٍ في بنايات الشارع، حتَّى استوقفتني لافتة ضخمة تحمل اسم الدكتور حاتم طبوزاده. سعيتُ صوبَ البناية التي تحمل اللافتة. ارتقيتُ الدَّرجَ المظلم حتَّى بلغتُ الطابق الثاني الذي كانت اللافتة معلَّقةً على شرفةِ إحدى شققه. كان باب العيادة مفتوحًا فدخلتُ، واستطعتُ أنْ ألاحظ في الضوء الهادئ أنَّ العيادة خاوية إلَّا من المرأةِ التي ردَّت على اتِّصالي. اقتربتُ منها. كانت تجلس وراء مكتبٍ عالٍ يُشبه الذي يجلس وراءه موظفو الاستقبال في الفنادق، وأمامها شاشة كمبيوتر LCD، ويُعطي ثدياها البارزان من البلوڤر البني الذي ترتديه، وشفتاها الغليظتان المطليَّتان بروج لامع، وشعرها البني الفاتح الذي يحوط وجهها النحيل، وطلاء أظافرها الطويلة الأسود؛ يعطي كلُّ هؤلاء انطباعَ أنَّ هذه المرأةَ ممثلةُ بورنو متمرِّسَةٌ في مصِّ قضبان الرِّجال! أحَّى. شكل ابن اللبوة

طُبُوزاده عايش حياته! قلتُ لها (وأحدُ أعضائي يَتململ) أنَّ لديها حجزًا باسم جابر عبد القادر. أومأَتْ مثبتةً، فسألتُها عن قيمة الكشف، فقالت: 150 جنيه. أخرجتُ ورقتين من جيب الحقيبة الداخلي الصغير الذي يضم مدَّخراتي (التي لم أعد مكترثًا لنزيفِها المستمر)، وأعطيتُها إياهما، فردَّتْ إليَّ خمسين جنيهًا، وأشارتْ بسبَّابتِها الطويلة إلى باب أبيض عن يساري، يقع في آخر العيادة، فمشيتُ نحوه وَجِلًا.

طرقتُه ثلاثًا، فأتاني صوتٌ عميقٌ يدعوني إلى الدُّخول. أدرتُ الأكرة، ودفعتُ الباب، ودلفتُ إلى الغرفة.

استقبلتني رائحةٌ خانقةٌ لا أعرف من أيِّ شيءٍ تنبعث. كأنَّها رائحةُ جوربٍ قديمٍ لم يُغسل منذ أسبوعٍ كاملٍ من ارتدائه المستمر، ممتزجة برائحة تبغٍ رطبٍ! لا أدري. نظرتُ قليلًا إلى وجه الدكتور الحليق ضيِّق العينين وسيم الملامح الذي يجلس خلف مكتبٍ صغير لا تشغله إلا دفاتر روشتات، وبعض الأقلام، وخلفه مكتبة تملؤها كتب طبيَّة، يبدو من كعوبِها أنَّها مختصَّة بعلم النَّفس (طبيعي!). أشار إليَّ بالجلوس، فتقدَّمتُ

نحو الكرسي الأيمن وجلستُ. سألني بصوتِه العميق:

- بتشتكي من إيه يا أستاذ جابر؟

رهبة المكان أخَّرت جوابي. لكن... فيم الرَّهبة؟! لقد جئتُ إلى هذا المكان آملًا أنْ تحدث معجزة، وإلَّا واصلتُ السبيل الذي أخفقت فيه أمس.

ابتلعتُ ريقي، وقلتُ له في حزم:

- أنا عايز أنتحر.

42

بعد أنْ حكيتُ له بإيجازٍ أبعادَ مأساتي (مكبَّلًا بجهاز يشبه جهاز كشف الكذب، ولا أدري لماذا!)، نظر إليَّ قليلًا، وقال وهو يُنفِذ في رُوحي عينيه اللتين لاحظتُ فيهما لمعانًا غريبًا (أخذ يتزايد كلَّما سردتُ جزءًا من حكايتي!):

– بصّ يا جابر. أنا شايف من حكايتك ومن هيئتك انّ انتَ جادّ في الموضوع، وانا خبرتي في الطبّ عرّفتني انّ اللي بيوصل للمرحلة دي يستحيل أيّ علاج ينفع معاه، لأنّ كلّ أشكال العلاج بتخلِّي الإنسان مش قادر يعيش من غيرها، دا غير انّها بتاخد وقت طويل جدًّا ويا تجيب أثر يا ما تجيبش. حالتك دي مالهاش غير علاج واحد بسّ ممكن يجيب نتيجة.

– إيه هوَّ؟

تراجع في مقعده، وهو يقول ببطء:

– إنَّك... تنتحر.

أصابتني الحيرة من قوله. طبيب نفسي يوافق مريضه الراغب في الانتحار على ما يريد! أنا على أيَّةِ حالٍ أنوي ذلك لكن... قبل أنْ أستفسر منه عن مغزى قوله أردف:

– أنا عندي مكان أقدر أوفّر لك فيه كلّ حاجة انتَ عايزها علشان تنتحر. وفيه ناس هتتولَّى إخفاء جثّتك بعد الانتحار، وكل ده مقابل 2000 جنيه. بسّ خلّي بالك.

وصمت لحظةً قبل أن يتابع:

– لو ما انتحرتش في خلال ساعة فيه حدّ بييجي يقتلك، وهيُعتبر الاتفاق الخاصّ بإخفاء الجثّة لاغي. فاهمني؟ علشان كدا أهم حاجة الجدِّيَّة.

فكرتُ في الأمر قليلًا. إنَّ هذا الطبوزاده يبدو عليه أنَّه لا يمزح. لم لا أجرِّب. لا شيء أخشاه ما دمتُ أتعاملُ مع الموت (أكثر ما يخشاه الناس) كأنَّه لاشيء. لن أخسر شيئًا. أنا الغَرِيقُ فما خَوْفي من البَلَلِ.

أخبرتُه بموافقتي، وسألتُه عن المكان، فقال لي:

- فندق هيجسياس.

هوت عليَّ الكلمتان كالصَّاعقة، وذكَّرَتَاني فورًا بالشابِّ (الهالِك) الذي صحب تفكيري في اليومين الماضيين، ويبدو أنَّه... سألتُ الدكتور:

- إنتَ تعرف رأفت عبد الله الشيتاني؟

ظهر عليه الارتباك للحظةٍ، قبل أن يتمالك نفسَه، ويقول:

- رأفت عبد الله الشيتاني مين؟

- دا واحد وصَّلته أول امبارح للفندق ده، وامبارح اتنشر في الجرنال انّهم لقوا جثّته في الشارع.

رفع رأسَه، وقال كأنه يتذكَّر:

- أيوَ أيوَ. رأفت... دا شاب كان عايز ينتحر زيَّك، بسّ أوّل ما الأوضة اتقفلت عليه خاف. إحنا كلّ اللي عملناه انّنا نفّذنا الاتّفاق اللي انتَ عارفه. والسؤال المهم دلوقتي. إنتَ مستعدّ تتحمّل تبعات رغبتك في الانتحار؟

لم أفكِّر في جوابٍ عن سؤاله. أخذت أفكر في الحوار الذي

تم بيننا، والذي يشبه اتفاقًا على شراء غسالة! إن بعض الأشياء يشبه بعضًا، ولا أظن أن الأمر سيختلف إن قررتُ - مثلًا - شراء شحنة من مدافع الجرينوف! على أيةِ حالٍ، إنَّ سخطي من الحياة جاوز المدى. وجه الناقد والشيخ والناشر والأم والأخت وزوجة العم ويمنى الحبيبة المفقودة، جعلوني أقول له في حزم:

- مستعدّ.

وأعطيتُه ألفَيْ جنيه، وأنا أقول له:

- وعلشان كدا بقى الفندق متسمّي على إسم هيجسياس الدَّاعي للانتحار.

ابتسم وهو يأخذ النُّقود، وقال:

- طبعًا. وعلى فكرة، انت ريَّحتني كتير يا جابر علشان انت مثقف. غيرك بيحتاجوا جلسات كتيرة علشان نجهِّزهم نفسيًّا للموضوع ده. واسم الفندق جزء من مراحل الإقناع الفلسفي بجدوى الانتحار، وفيه كلام كتير كنت ممكن أقولهولك، لولا ان أنا متأكد انك عارفه. دا غير ان الجهاز اللي كنتُ مركّبهولك

أكّد لي انّ انت ما بتكذبش، وعايز تنتحر فعلًا! أنا شايف انّ الانتحار حقّ للبشر زيّ الـ... (بتر كلامه). حقّ للبشر لا نقاش فيه (مرمش مرتين سريعًا).

- طيِّب والقانون؟

انفجر ضاحِكًا ثم قال:

- أغلب المنتحرين فعلًا بيكون جايلهم اكتئاب من خداع الواقع. مصر ما فيهاش قانون يا جابر غير السُّلطة والفلوس. روح يللا الفندق دلوقتي وجمِّد قلبك.

شيءٌ في عينيه لم يُرحني. لكن... ما معنى الرَّاحة وعدم الرَّاحة حِيال ما أنا مقبل عليه؟ لن أخسر شيئًا. سأذهب إلى الفندق، وعسى أنْ أجِدَ الخلاص في هذه التجربة المجنونة!

43

في التاكسي، أخرجتُ دفتري الصغير من حقيبة يدي، ودوَّنتُ فيه بقلمي الروترنج – أسفلَ تاريخ اليوم 28 ديسمبر 2013 – كلمةً واحدةً موجزةً...

(مت)

ووقَّعْتُ تحتها باسمي، وكتبتُ عناوين رواياتي الثلاث الموجودة في الحقيبة، ثم أغلقتُ الدفتر، وأعدتُه إلى مكانه، ووضعتُ القلم في جيب الجاكت الداخلي الأيسر. طلبتُ من السائق أن يُقِلَّني أوَّلًا إلى سيدي بشر لأضع في الشقة المستأجَرة الدلائلَ الأخيرةَ لوجودي الحَيِّ على ظهر هذا الكوكب!

حين وصل التاكسي إلى البناية، أعطيتُه خمسة وعشرين جنيهًا، وطلبتُ منه أن ينتظرني لكي يصحبني بعد ذلك إلى شارع بورسعيد. صعدتُ سريعًا إلى الشقة، وألقيتُ الحقيبة على فراش الغرفة الوسطى، ونظرتُ في محفظتي، فلم أجد فيها إلا

ورقةً بعشرين جنيهًا، وبالتأكيد لم يزل بها ما يثبت هُوِيَّتي التي ستَفْنَى بعد قليل! رجعتُ بعد ذلك إلى التاكسي، فانطلق بي صوب شارع بورسعيد.

حين اقتربت السيارة من المكان الذي أوصلتُ إليه رأفت الشيتاني أول من أمس، طلبتُ من السائق أن يتوقَّف. ترجَّلتُ من التاكسي. سرتُ خطواتٍ حتَّى أصبحتُ بإزاء الفندق الذي تعلو مدخلَه لوحةٌ عليها هذه الحروف اليونانية التي رأيتُها أول من أمس:

(ξενοδοχείο Ηγησίας)

كان بجواره صندوق قمامة زيتوني اللون متوسط الحجم، فاقتربتُ منه، وكسرتُ موبايلي بعنف، بعد أن أخرجتُ منه الشريحة، وألقيتُه هو والشريحة (التي أفسدتُها تمامًا بعضَّاتٍ قاسيةٍ عليها) في الصندوق. لن أحتاجه بعد اليوم. دلفتُ من باب الفندق الزجاجي غيرَ مرتابٍ ولا متهيِّب؛ فلم يعد لديَّ ما أخسره. البهو غير الواسع مضاءٌ بمصابيحَ خافتةٍ، تُخفي بأستار الظلال ملامحَ المكان. على اليسار، كان موظف الاستقبال

جالسًا وراء حاجزٍ خشبيٍّ عالٍ، يكاد يصل إلى منتصف صدري. ما إنْ رآني، حتَّى نهض مبتسمًا بوجهه الحليق، وغلق أزرار بِذلتِه، وقال بتهذيب:

- اتفضَّل يا افندم.

قلت له:

- أنا جابر عبد القادر، والدكتور حاتم طبوزاده بعتني على هنا، وأظنكم عارفين الموضوع كويِّس.

أومأ إليَّ الموظفُ مُثبتًا، ثم قال:

- لحظة واحدة.

وغاب في ممرٍّ جانبيٍّ لدقيقةٍ، بعدها عاد ومعه رجلٌ ضخمٌ، في وجهه شاربٌ غليظٌ، وحاجباه سميكان، وأنفه الأسود العريض يعطي انطباعًا (إضافةً إلى سائر ملامحه) بأنه مُخبِر! قال لي الموظف وهو يشير إلى من أحضره:

- اتفضَّل حضرتك معاه. هوَّ هيوصَّلك للأوضه بتاعتك.

تبعتُ الرجلَ في الممر الذي جاء منه حتى وصلنا إلى

الدَّرَج. صعدتُ معه حتى الطابق الرابع. سرنا في رواقٍ قصيرٍ أفضى بنا إلى ردهةٍ تُطِل عليها خمس غرف، بجوار كلٍّ منها مصباح صغير. فتح باب الغرفة رقم 401. أضاءها بضغطةٍ على أحد المفاتيح المجاورة للباب. وما إنْ دخلتُ، حتَّى أغلق الباب بسرعة، وسمعتُ صوتَ دوران المفتاح فيه. نظرتُ قليلًا في الغرفة فاتَّسعَتْ عيناي دهشةً. أنا انضحك عليَّ ولَّا إيه؟!

44

كانت الغرفةُ خاليةً إلَّا من منصَّةٍ مَعْدِنيَّةٍ مرتفعةٍ تشبه المسرح، مواجهة للباب، ويتدلَّى فوقها من السقف حبلٌ ليفيٌّ سميكٌ في آخره عقدة واسعة، وفي الجدار الـمُغَطَّى بالفايبر الأسود كسائر الجدران الـمُصمتة الخالية من النوافذ مفتاح ناتئ يشبه مفتاح النور، وبجواره ساعة حائط رقمية بَدَأَت العَدَّ التنازلي! هل خدعني حاتم طبوزاده؟! لقد ظننتُ أنَّ الانتحار سيكون بقُرْصٍ سحريٍّ أو حتَّى بمسدَّس. لكن... مشنقة؟! لمحتُ ورقةً على المسرح الصَّغير، فالتقطتُها، ونظرتُ في الرسوم الركيكة التي تملؤها، مبيِّنةً (طريقة استخدام المشنقة)، وفق العنوان المقبض الذي يعلو الرسوم! فهمتُ منها أنَّ الراغب في الانتحار يجب أن يضغط على المفتاح بعد أن يضع رأسَه في العقدة، لكي تنفتح من تحت قدميه آليًّا فَجْوَةٌ تبتلعُ جَسَدَه، فيتدلَّى من الحبل ميتًا. مشنقة يا طبوزاده! كس أمَّك يا طبوزاده! فترت عزيمتي تمامًا. أنا أعلم جيِّدًا أنَّ الشنق لا يسلب الحياة

بمنع الإنسان من الهواء، بل بقطع الحبل الشوكي من منبعه. وأعلم أيضًا أن قضيبَ المشنوق ينتصب فور انقطاع الحبل الشوكي! انتصاب الموت. وهذا – لعَمْري – وضعٌ مُذِلٌّ!

هَوَيْتُ قاعدًا، وأسندتُ ظهري إلى الجدار الأيمن، وأخذتُ أتأمَّل الحبل السميك المتصل بالسقف. لو لم أنتحر فسوف يأتي من يقتلني. ما الذي أتى بي إلى هنا؟! أجل أنا أريد أن أنتحر، لكنَّ هذا الموقف يُلقي غصَّةً مرَّةً في حلقي لا أعرف سببها. أليس هذا ما تمنيتُه؟ لماذا لا أجد في نفسي إذًا عزيمةً لإتمامِه؟ لو لم أنتحر فسوف أُقْتَل. يا لها من معضلةٍ عبثيةٍ! معاقبة متحدِّي الموت بالموت! وماذا بعد الموت؟ لقد سبقني إليه أبي وعمِّي وابن الحقير الشيخ ياسر والفتى البائس رأفت الشيتاني. وسبقهم إليه ملايين. الموت هو الشيء الوحيد الذي يفعله كلُّ الناس دون أن يفهموه. كان التعاملُ معه في الماضي السحيق أبسط، قبل أن يدرك الإنسانُ – بواسطةِ خبراتِهِ العلميَّةِ المتراكمةِ – حقيقةَ غرائزِه. كانت الأساطيرُ تفسِّر الجنس والموت، وَجْهَي الوجود. اليومَ أصبح الجنسُ مفهومًا دون

أساطير، ولم يزل الموتُ غامضًا! أو فلأقل إنَّ العقلَ البشريَّ يستصعبُ الإيمانَ بحقيقةِ الموتِ التي وصلَ إليها، ويلتذُّ بإبقائه غامضًا، متلفِّعًا بأساطيرِ الديانات! لا أحد يريدُ أنْ يقتنعَ بأنَّ الجسدَ يفنَى بلا رجعةٍ، ولا حياةٍ لَهُ جديدةٍ بعد موته. ولا أحد يريدُ أنْ يصدِّقَ أنَّ الإنسان والقطة – مثلًا – تجلِّيَان من ملايين تجليات حياة المادَّة في كوكب الأرض، وأنَّ الإنسانَ وغيرَه من الأحياء يذهبون بعد الموت إلى المكان نفسه، ويلاقون نفس المصير. لا فضل لكائنٍ على آخر. وحده الإنسان استعان بعقلِه على تلفيق الأكاذيبِ الـمُريحةِ، وأوهم نفسَه أنَّ بعدَ الموتِ حياةً أخرى لنفسِ الجَسَد، وأنَّ الفناءَ مستحيلٌ، وأنَّ شيئًا ما غيرَ مرئيٍّ يُدْعَى (الروح)، قَادِرٌ على أنْ يعبرَ بالإنسانِ جِسْرَ الأبديَّة! شحنتني أفكاري التي استمرَّت، حتَّى ظَهَر على الساعة الرقمية رقم 5 الذي ينبئ بأنَّ مهلة الساعة انقضى منها خمس وخمسون دقيقة! بثَّتْ فيَّ دقائقُ التفكير عزمًا تدفَّق في عضلاتي، فهببتُ واقفًا، واتَّجهتُ نحو المسرح. ارتقيتُه، وأدخلتُ رأسي في العقدة، ومددتُ يدي اليسرى حتَّى لامسَت المفتاح الذي

ورائي. وَثَبَتْ إلى ذهني مرَّةً أخرى فكرةُ انتصابِ الموت، لكنِّي نفضتُها عن ذهني بأنْ هززتُ رأسي بعنفٍ مثلما اعتدت. لن أكون موجودًا أصلًا فأحرج! أغمضتُ عينيَّ. ارتسمَ في ظلامِ الجفونِ جميعُ ذكريات انتصابات الحياة! فَخِذ المنقَّبة التي جلست لصقي في الترام. رَبْوَتَا صدر يمنى البديعتان. جسد سكرتيرة طبوزاده، ومئات الذكريات الأخرى. التقطتُ نفسًا عميقًا بعثر كلَّ الذكريات التي حضرتني ثم...

ضغطتُ على المفتاح.

42

لم أمُتْ!

حين ضغطتُ على المفتاح، لم يحدُثْ أيُّ شيءٍ!

ضغطتُ عليه مرَّةً أخرى، ولا استجابة!

هرول قلبي بعنف. هل خُدِعْتُ؟ أخرجتُ رأسي من العقدة، ونظرتُ إلى الساعة الرقمية. لقد انتهى الوقت. ضغطتُ على المفتاح بعصبيَّةٍ أكثرَ من مرَّة، لكنَّ شيئًا لم يحدث. كأنني أضغط على أيِّ مكانٍ من الحائط. لكن... آه يا ولاد الوسخة!

تناهى إلى مسمعي صوت دوران المفتاح في الباب. انفتح بقوة عن وجه الرجل الضخم الذي اصطحبني إلى غرفة الانتحار المزيَّف. نظر إليَّ بسخريةٍ قبل أنْ يقول مخاطبًا شخصًا لم يكن في مجال الباب المفتوح:

- اتفضَّل يا أشرف باشا.

صرختُ في الرَّجل مغتاظًا:

- إنتَ هتعمل إيه؟ المشنقة ما بتشتغلش أصلًا.

لم يردّ. دخل إلى الغرفة بعد أشرف باشا (الذي يحملُ ملامِحَ خنزيرٍ أبيضَ شهوانيٍّ). أغلق الباب، وتقدَّما نحو المسرح. كانت أعينُهما تحمل نظرةَ اشتهاءٍ واستخفافٍ أخافتني. صعد الرجل الضخم إلى المسرح فتراجعتُ، لكنه عاجلني بلكمةٍ موجعةٍ، انحنيتُ إثرها متأوِّهًا، فوقف خلفي، وقيَّد ذراعيَّ من منبتيهما وراء ظهري بطريقة المصارعة الحرَّة. آلمني ذلك الوضعُ جدًّا. وما إنْ أبصرني أشرف باشا مقيَّدًا بهذه الطريقة، حتى صعد هو الآخر إلى المسرح، وقال مخاطبًا مَنْ يقيِّدني، وهو يجذب سوستة بنطاله إلى أسفل:

- إمسكه كويِّس يا خلَّاف.

انصاع خلَّاف للأمر، واعتصر ذراعيَّ بقوةٍ أكبر.

- حاتم عمل الواجب وزيادة. الأسبوع اللي قبل اللي فات، وأول امبارح والنهاردا.

ونظر إليَّ ساخرًا وهو يداعب ذَكَرَه بأصابعه.

- نزِّله شويّة يا خلَّاف.

فجثا على ركبتيه، وجثوتُ معه مرغمًا، فأحسستُ ذُلًّا لا تكافئه كلُّ إخفاقاتي التي تعرضتُ لها في حياتي، وخاصَّةً حين لمست عيني اليسرى حَشَـ... لا. لا أريد أن أصف هذه الحادثة المقززة. وأظنني أدركتُ في تلك اللحظة لماذا ذُكِر في الخبرِ المؤسفِ الذي قرأتُه أمسِ أنَّ جثَّة الشاب رأفت كان بها نزيف شرجي!

46

لم يستمرَّ وضعُ الـجُثُوِّ طويلًا؛ فقد طلب الباشا من خلَّاف أن يديرني، بحيث يكون ظهري بإزائه. ما إن حلَّ قيد ذراعيه حتى انتفضتُ بقوة، وأخرجتُ من جيب الجاكت الداخلي الأيسر قلمي الروترنج، وغرسته بأقصى قوةٍ في عينه اليمنى. أخذ يصرخ كالمحترق، ونظر إليه أشرف باشا غير مصدِّق، فاستغللتُ ذهولَه، وركلته في عضوه المنتصب، فانثنى على نفسِه يتأوَّه، ويحاول أن يلتقط أيَّ نفسٍ وسط نبضات عصبه (الحائر) الثائرة. ركلته مرة أخرى في وجهه المنقبض، فتكوَّر على الأرض مواصلًا الأنين. كان خلَّاف يمسك عينه المطعونة صارخًا، ويحاول أن ينزع منها القلم، وهو يدور في الغرفة كالسيكلوبس!

أخرجتُ بسرعةٍ محفظةَ الباشا من جيبه، ليتسنَّى لي فيما بعد الوقوف على هُويته، وفررت من الغرفة دون إبطاء. ركضتُ كالشعاع على الدرج. سمعتُ صوتَ ارتطامٍ وتخبُّطٍ فلم أهتم،

وواصلتُ الركض. وفي بهو الاستقبال، وجدتُ الموظف ينظر إليَّ فاغرًا فاه قائلًا:

- مستحيل!

لكنه لم يستطع أن يوقفَني؛ فقد جمَّدته المفاجأة الصَّادمة التي لم يكن يتوقَّعها.

خرجتُ من باب الفندق، ولم أنظر خلفي. ولا توقفت عن الركض، وحين وصلتُ إلى محطة ترام الجامعة، وقفتُ ألتقط أنفاسي بجوار محلٍّ صغيرٍ مغلَقٍ. نظرتُ إلى السَّمَاءِ قليلًا. أحسستُ سعادةً برغم ما في جسدي من آلامٍ لا تمحى. أوقفتُ تاكسي، وأخبرتُه بوجهتي التي ستشهد تحوُّلي الثاني.

سيدي بشر.

***

"أنا شايف انّ الانتحار حقّ للبشر زيّ الـ... (بتر كلامه). حقّ للبشر لا نقاش فيه (مرمش مرتين سريعًا)".

هل كان يقصِد أن يقول: حقّ للبشر زيّ القتل؟!

47

في الشقة المستأجَرة، عرفتُ بقليلٍ من التأمُّل والتفكير، وبعونٍ من محفظة أشرف باشا البرديسي (ردَّني اسمُه مباشرةً إلى تذكر الخبر الـمُحزن الذي قرأتُه أمسِ)، أنَّ الدكتور (حاتم طبوزاده) يستغلُّ الراغبين في الانتحار. أجل. يستغلُّهم لكي يلبيَ طلباتِ الرَّاغبين في القتلِ أو الاغتصابِ أو التعذيبِ، أو أيِّ شيءٍ آخرَ سالبٍ لكرامة الإنسان وحياته. وأدركتُ أنَّ العميد (أشرف البرديسي) هو الذي قَتَلَ رأفت بعد أن اغتصبه بعونٍ من (خلَّاف)، ولعله قتل آخرَ لا علم لي بتفاصيل هلاكه! يبدو أنه زبون متميز! تذكرتُ رسالة انتحاري الذي لم يتمّ (ولا أحسبني سأعود إليه مرَّةً أخرى!). فتحتُ الدفتر الصغير، وقرأتُ الكلمة التي يعلوها تاريخ اليوم، وتحتها توقيعي، وعناوين مؤلفاتي.

(مت)

مت!

كانت تعني حين كتبتُها شيئًا يختلفُ تمامًا عمَّا أُحِسُّه فيها الآن. تبدو لي في هذه اللحظة كأنها فعل أمر، لا فعل ماضٍ!

لقد تعلَّمْتُ اليومَ شيئًا غفلتُ عنه طوال حياتي القصيرة. لا يحتاج المرءُ إلى (فندق انتحار) مِن خَلْقِ البشر لينتحر، فسوف يستغلونه بدافعٍ من نفوسِهم المعتمة. لكن... لعلني كنتُ محتاجًا فعلًا إلى مِثله لأعلمَ أن الحياةَ الخاويةَ من الهدف لا معنى لها. وقد كان هدفي قبل دقائق هو التغلب على الضابطِ اللوطيِّ القاتلِ، وخلَّاف الثور البشري، وأيِّ إنسانٍ ظلمني أو خدعني أو تلاعب بي. قبل أن أفكر في الانتحار، لا بد وأن أتأكد من أن أحدًا لن يستغلَّ كراهيتي للحياة... من أن أحدًا لن يقتنصَ رغبتي في الموت لكي يُشبعَ رغبتَه في القتل أو في التهام لحوم البشر! من أن الظالمين لن يطرَبوا لموتي، لأن لذَّاتِ الحياةِ قد صَفَتْ لهم، بتنازُلِ أحدِ الأحياءِ عن نصيبِهِ منها. (مت) فعل أمر يدفعني للانتقام من الظالمين. وسوف أفعل.

التقطتُ من حقيبة يدي القلم الجاف. طمستُ بعنفٍ توقيعي وعناوينَ مؤلَّفاتي. بدأتُ أكتب أول اسمين في القائمة الطويلة.

حاتم طبوزاده.

أشرف البرديسي.

والأسماء الأخرى لا يحتاجُ تدوينُها إلى تفكيرٍ طويلٍ!

48

ختامُ هذه الذكريات (التي بدأتُ أفكِّر في أنْ أنتهيَ من قتلِها في دفتري، ثم أرسله بعد ذلك إلى طارق – الذي لـن أراه بـعد ذلك – عن طريق صاحبة الغرفة التي يستأجرها) لا أظنُّ أنَّكَ ستعرفه. وأظنُّ أن اسمي الذي ظهر على كتابين من قبل، لن يقابلك مرَّةً أخرى. قد تصادفك أخبارٌ في صفحاتِ الحوادث عن جرائمِ قتلٍ، لا يُسْتَدَلُّ أبدًا على مقترفيها. لا تَلُمْهُم من فضلك. ما أكثرَ الظالمين! وما أكثرَ من فضَّلوا القتل (السلوك الأكثر تقبُّلًا في عُرف الطبيعة) على الانتحار (السلوك الأجوف)! لا تَلُمْهُم؛ فقد أكون واحدًا منهم، واللائمون عندي صنفٌ من الظالمين! سأرسل ذكرياتي إلى طارق (الكتوم) لتظلَّ عندَه تُذَكِّره بآلام صديقه التي خلقتْه خلقًا جديدًا، وجعلتْه إنسانًا آخر. لا أعرف مَنْ هو أولى بها منه. سأرسِلُها إليه، حتى ولو كان ينوي أن يتخلَّى عن صفة الكتمان، وأن يذيع في الناس أفعالي ونِيَّاتي! أنا بعد اليوم سأكون شبحًا. لن أظهر إلَّا في كوابيس من ظلمني.

فَتَحَسَّسْ رَأْسَكَ!

المؤلِّف في سطور

- وُلد بمحافظة كفر الشيخ عام 1991.
- شارك في المهرجان الدولي للشعر (كلام للشباب) الذي نظمه المعهد الثقافي الإيطالي بالقاهرة في نوفمبر 2013.
- نُشرت قصيدتاه (أليس الحبُّ كالإشفاق)، و(الزبيبة) مترجمتَين إلى اللغة الإنجليزية والإيطالية في مجموعة (كلام للشباب) الشعرية، التي أصدرها المعهد الثقافي الإيطالي بالقاهرة عام 2013.
- فازت قصته القصيرة (حرية وعدالة) في مسابقة القصة القصيرة التي نظمها اتحاد كتاب مصر عام 2014 (دورة الأديب عبد المنعم شلبي).
- شارك في ورشة (قصص القاهرة القصيرة) التي نظمها معهد جوته عام 2015، بالتعاون مع مؤسسة بنك التعمير الألماني وجمعية ليتبروم؛ وكانت قصته (عبث سماوي) ضمن القصص المرشحة لجائزة ليتبروم الألمانية.

- تُرجمت قصته القصيرة (جبَّانة الذكريات) إلى الإنجليزية والإسبانية ونُشرت ضمن مشروع (قصص عربية) عام 2017.
- فازت قصيدته (مُنية المفلسين) بالمركز الأول في مسابقة شعر الفصحى التي نظمتها لجنة الشباب باتحاد كتاب مصر، عام 2017 (دورة الشاعر محمد علي عبد العال).
- فاز ديوانه (أناشيد الإغماء) في المسابقة المركزية التي تنظمها الهيئة العامة لقصور الثقافة عام (2017 – 2018).
- فازت قصيدته (في بلاط الخليفة) بالمركز الأول في مسابقة شعر العامية التي نظمتها مؤسسة مصر للقراءة والمعرفة عام 2018، (دورة الأديب صبري موسى).
- نُشر عدد من مقالاته في مجلة المحطة الإلكترونية.

الأعمال المنشورة:

- ديوان (رسول اللات): صدر عام 2014 عن دار كلمة للنشر والتوزيع.
- المجموعة القصصية (زِعرِبانة): صدرت عام 2016 عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ووصلت إلى القائمة القصيرة بجائزة ساويرس الثقافية (الدورة الثالثة عشرة) عام 2017.

- ديوان (أناشيد الإغماء): صدر عام 2018 عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، وكان قد فاز في المسابقة الأدبية المركزية.